فهرسة الكتاب

01 – تمهيد

إنّ الإنسانَ هو المخلوقُ المكلَّفُ بحملِ الأمانةِ ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

[الأحزاب : الآية 72] .

ومِن الثابتِ أيضاً أنّ الإنسانَ هو المخلوقُ المكرّمُ ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .

[الإسراء : الآية 70] .

وقال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

[الجاثية : الآية 13] .

ومن المؤكّدِ أنّ المسخَّرَ له ، وهو الإنسانُ أكرَمُ من كلّ المسخَّراتِ .
والإنسانُ هو المخلوقُ المكلَّفُ بالعبادةِ ، قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾.

[الذاريات : الآية 56] .



والعبادةُ أنْ تعرفَ اللهَ أولاً ، وأن تطيعَه ثانياً ، وأن تسعدَ بقُربِه ثالثاً ، وبعبارةٍ أخرى : في الإسلامِ كلّيّاتٌ ثلاثٌ ؛ كلّيةٌ معرفيّةٌ ، و كلّيةٌ سلوكيّةٌ ، و كلّيةٌ جماليّةٌ .

الكليّةُ المعرفيّةُ سببُ الكليّةِ السلوكيّةِ ، والكليّةُ الجماليّةُ نتيجةُ الكليّةِ السلوكيّةِ ، تتعرّفُ إليه ، فتطيعُه ، فتسعدُ بقُربِه في الدنيا والآخرةِ .

وقد كلّفَنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنْ نزكِّيَ أنفسَنا ، لأننا إذا عرَّفنا أنفسَنا بربها وحملَناها على طاعته ، والتقرّبِ إليه نكونُ بذلك قد حقّقنا الهدفَ من وجودِنا ، لقولِه تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ .

[الأعلى : الآية 14] .

فالفلاحُ كلّ الفلاحِ ، والنجاحُ كلّ النجاحِ ، والفوزُ كلّ الفوزِ ، والتفوّقُ كلّ التفوّقِ بتزكيةِ النفسِ ، لأنّ اللهَ تعالى يقول :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

[الشعراء : الآية 88 – 89] .

أتى اللهُ بنفسٍ زكيّةٍ طاهرةٍ مِن كلّ درَنٍ ، نقيّةٍ من كلِّ عيبٍ ، بنفسٍ مؤهّلَةٍ أنْ تكونَ في جنةِ اللهِ عز وجل إلى أبدِ الآبدين ، فالحياةُ الدنيا حياةٌ إعداديّةٌ لحياةٍ عليا تكريميةٍ ، نحن في حياةٍ نكدَحُ فيها كدْحاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ .

[الانشقاق : الآية 6] .

والآخرةُ حياةٌ تكريميّةٌ ، قال تعالى :

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

[ق : الآية 35] .



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قَالَ اللَّهُ : ((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ :
﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾)) .

[البخاري (3072) ، ومسلم (2824) ، والترمذي (3197) ، وأحمد (9647)]

وما كلّفنا ربّنا بتزكيةِ أنفسِنا ، والتعرّفِ إليه ، وعبادتهِ إلا وقد أعطانا مقوّماتِ هذه التزكيةِ و المعرفةِ .



02 – مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، سيد المربين وإمام المعلمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، وبعد ... فمن الثابت أن أخطر شيء في الدين العقيدة ، فإنها إن صحت صح العمل ، وإن صح العمل ... سلم الإنسان في الدنيا ، وسعد في الآخرة ، فالذي يهتدي بهدي القرآن لا يضل عقله ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت .

والعقيدة الصحيحة ينبغي أن نستقيها من القرآن الكريم ، وما صح من السنة النبوية وفق قواعد علم الأصول ، وبحسب فهم الصحابة الكرام ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم شهد للقرون الثلاثة الأولى بالخيرية ، ولا يقبل ولا يعقل أن نستقيها من علوم هجينة على وحي السماء ، ولا أن نقيس حقائقها بأقيسة أمم أخرى ، فنحن في أمس الحاجة أن نؤصل حقائق الدين ، وينبغي أن نبسطها ، وأن نوائمها مع مبادئ العقل والفطرة ، فالحق دائرة تتقاطع فيها خطوط أربع ؛ خط النقل الصحيح ، وخط العقل الصريح ، وخط الفطرة السليمة ، وخط الواقع الموضوعي ، وينبغي أن نجسدها في حياتنا ، فكما أن الكون قرآن صامت ، وكما أن القرآن كون ناطق ، وكما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرآن يمشي ، كذلك نحن في أمس الحاجة إلى إسلام متحرك نراه بأعيننا موافقاً لما نسمعه بآذاننا .

وبما أن علة وجودنا في الدنيا أن نعبد الله ، والعبادة في أدق تعاريفها طاعة طوعية ، ممزوجة بحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، فالجانب السلوكي هو الأصل ، والجانب المعرفي هو السبب ، والجانب الجمالي هو الثمرة .

وهذا الكتاب يتصل بالجانب المعرفي من العبادة ، لكنه يتناول العقيدة من زاوية جديدة ، فالإنسان هو المخلوق الأول رتبة ، والمكرم تفضلاً ، والمكلف بعبادة ربه مهمـــــة ؛ لأنه قبل حمل الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال فاستحق أن يسخر الله له ما في السماوات وما في والأرض جميعاً منه .

لهذا بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ففي الكتب المنزلة تعريف للإنسان بخالقه ومربيه ، تعريف بحقيقة الكون ، وتعريف بحقيقة الحياة الدنيا ، وتعريف بمهمة الإنسان فيها ، وقد ورد في البيان الإلهي أن البشر مخلوقون لجنة عرضها السماوات والأرض تجري من تحتها الأنهار ، أُكلها دائم وظلها ، لهم فيها ما يشاؤون خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم .



وشاءت حكمة الله أن يجعل لهذه الحياة العليا الأبدية ، حياة دنيا إعدادية ، وخلق الإنسان فيها ليزكي نفسه ، ولتكون هذه التزكية ثمناً لتلكم الجنة ، لهذا منح الله الإنسان مقومات هذه التزكية ؛ كوناً مسخراً تسخير تعريف وتكريم ، وعقلاً هو أداة المعرفة وم ناط التكليف ، وفطرةً تكشف للإنسان خطأه وانحرافه ، وشهوةً يرقى الإنسان بها صابراً وشاكراً وحرية اختيار تثمن العمل وتقي الزلل ، ومنهجاً يصحح المسار ، كل هذا على مسرح مكاني هو الأرض ، وفي ظرف زماني هو العمر ، فالعمر رأسمال الإنسان في حياته الدنيا ، إذا أنفقه الإنسان في تزكية نفسه كان ثمناً لجنة ربه .

ولهذا الكتاب قصة بدأت منذ أن تمنى علي أخ كريم أكن له كل محبة وتقدير أن أفرغ خطابي الإسلاميِّ بكل أُطُره وأنماطِه ، وأشكالِه وألوانِه ، سواءٌ في المساجدِ ، أو في الجامعاتِ ، أو في المؤسّساتِ الدعويةِ ، أو في المراكزِ الثقافيةِ ، أو في وسائلِ الإعلامِ المحليةِ ، والعربيةِ ، والإسلاميةِ ، والدوليةِ ، على الحاسوب ، ليكون موسوعة ليزرية ينتفع بها طلاب العلم أولاً ، ولتكون مادة دعوية لموقع النابلسي على الإنترنيت ثانياً ، وقد نفذ هذا العمل فريق عمل كبير بجهده وإخلاصه ، قليل بعَدده وأدواته ، أشكرهم جميعاً ، وأخص منهم بالذكر الأستاذ بلال نور الدين الذي كانت له مساهمة مشكورة في إخراج هذا الكتاب .

ولا يَسَعُني هنا إلا أنْ أدعوَ فأقولَ : جزى اللهُ عنا سيدَنا محمداً ﷺ ما هو أهلُه ، وجزى عنا أصحابَه الكرامَ ما هم أهلُه ، وجزى عنا والدِينا ، وأساتذتنا ، ومشايخَنا ، ومَن علّمنا ، ومَن له حقٌّ علينا ما هم أهلُه.

أعوذ بك يا رب أنْ يكونَ أحدٌ أسعدَ بما علّمتني منّي ، وأعوذُ بك أنْ أقولَ قولاً فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذُ بك من فتنةِ القولِ ، كما أعوذُ بك من فتنةِ العملِ ، وأعوذ بك أنْ أتكلّف ما لا أحسنُ ، كما أعوذُ بك من العُجبِ فيما أحسن .

دمشق في 29 / 5/ 2005

الدكتور محمد راتب النابلسي



03 – مقومات التكليف

أوّلاً : الكونُ :

هذا الكونُ بمجرَّاته ، بكواكبه ، بمذنّباته ، بأبراجِه ، بسماواته ، بأرضِه ، وبما فيها من جبالٍ وأنهارٍ ، وأسماكٍ وأطيارٍ ، وأنواعٍ لا تُحصى من النباتاتِ ، وأنواعٍ لا تُحصى من الحيواناتِ ، هذا الكونُ ينطقُ بثلاثِ كلماتٍ ؛ ينطقُ بأنّ اللهَ موجودٌ ، و بأنّ اللهَ واحدٌ ، و بأنّ اللهَ كاملٌ .

هذا الكونُ مَظْهَرٌ لأسماءِ اللهِ الحسنى ، وصفاتهِ الفضلى ، وإذا أردتَ أنْ تعرفَ اللهَ فالكونُ يدُلُّكَ عليه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

[آل عمران : الآية 190] .

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ .

[الشورى : الآية 29] .

وقال عزوجل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ .

[فصلت : الآية 37] .



وقال :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

[الروم : الآية 23].

والحديثُ يطولُ عن آياتِ اللهِ في الكونِ ، ولكنّنا نضربُ أمثلةً على تلك الآياتِ العظيمةِ .

اكتُشِفَ حديثاً مجرّةٌ تبعد عنا ثلاثمئة ألفِ بليون سنةٍ ضوئيّةٍ ، وإذا أردتَ أنْ تصلَ إلى أقربِ نجمٍ ملتهبٍ إلينا يبعدُ عنا أربعَ سنواتٍ ضوئيةٍ فإنك تحتاجُ إلى خمسين مليونَ عامٍ بمركبةٍ أرضيةٍ ، فكيف بك إذا أردتَ أنْ تصلَ إلى مجرّةٍ تبعد عنا ثلاثمئة ألفِ مليون سنةٍ ضوئيةٍ ؟ قال تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ .

[الواقعة : الآية 75 – 76] .

نجمٌ صغيرٌ اسمُه قلبُ العقربِ ، يتّسعُ للشمسِ والأرضِ مع المسافة بينهما ، قال تعالى :

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ .

[الأنعام : الآية 102] .

وقال :

﴿ قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .



[يونس : الآية 101] .

وقد لفت اللهُ جلّ جلاله نظَرَنا إلى آياته ، ونهانا أنْ نمرَّ عليها من دونِ تفكُّرٍ وتأمّلٍ ، فقال جلّ مِن قائلٍ :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ .

[يوسف : الآية 105] .

وبيّنَ اللهُ تعالى أنّ آياتِهِ العظيمةَ ستظهرُ للناسِ تِباعاً ، فقال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

[فصلت : الآية 53] .

وإذا بدأَ الإنسانُ التفكّرُ في جسمِهِ فسيجدُ العجبَ العجابَ ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ .

[البلد : الآية 8].

ذلك أنّ في شبكيةِ العينِ مئةً وثلاثين مليونَ مخروطٍ وعصيٍّ ، وفيها تسعمئة ألفِ عصبٍ ، لكل عصبٍ وريدٌ وشريانٌ ، ولكل عصبٍ أغمادٌ ثلاثةٌ .

الكونُ أحدُ مقوّماتِ التكليف ، وقد سخرّه الله لنا تسخيرين ، تسخيرَ تعريفٍ ، وتسخيرَ تكريمٍ ، وقد جاء في الحديثِ الشريفِ ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ : هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا ، وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))[6] ، ((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))



[أبو داود (5092) عن قتادة ، والطبراني في الأوسط (311) عن أنس والكبير (4409) عن رافع بن خديج] .

أي : إنه ينفعُنا ، ويرشدُنا إلى ربنا ، وقِسْ على ذلك كلَّ شيء ، قِ سْ على ذلك طعامَك وشرابكَ ، أنواعَ النباتاتِ ، أنواعَ الأطيارِ ، أنواعَ الأسماكِ ، تضاريسَ الأرضِ ، وما فيها من بحارٍ وجبالٍ ، وأنهارٍ وأغوارٍ ، وقفار وبحيراتٍ وسهولٍ ، قِسْ على ذلك كلَّ شيء ، إذاً : ((هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ)) ، أي : إنّ الكونَ مسخَّ رٌ لنا تسخيرين ، تسخيرَ تعريفٍ ، وتسخيرَ تكريمٍ .

الموقفُ الأمثلُ من تسخيرِ التعريفِ أنْ تؤمنَ ، والموقفُ الأمثلُ من تسخيرِ التكريمِ أنْ تشكرَ ، وإنْ آمنتَ وشكرتَ فقد حقّقتَ الهدفَ الذي مِن أجلِهِ خُلقتَ ، قال تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

[النساء : الآية 147] .

ثانياً ـ العقلُ :

لقد ذكرَ اللهُ سبحانه وتعالى العقلَ وفروعَه في القرآنِ الكريمِ قريباً من ألفِ آيةٍ ، فيصرِّحُ بذلك ويقول :

﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

[يس : من الآية 68].

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

[البقرة : من الآية 44]

وقال :



﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

[يونس : من الآية 24] .

وقال :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

[الأنعام : من الآية 126] .

وقال عزوجل :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

[النحل : 13] .

لأنّ العقلَ أداةُ معرفةِ اللهِ ، ولأنّ مبادئَ تتوافقُ مع مبادئِ الكونِ ، فالعقلُ مثلاً لا يفهمُ شيئاً بلا سببٍ ، وهذا مبدأُ السببيةِ ، والعقلُ لا يفهمُ شيئاً بلا غايةٍ ، وهذا مبدأُ الغائيةِ ، والعقلُ لا يقبلُ الشيءَ ونقيضهَ ، وهذا مبدأُ عدمِ التناقضِ .

إذاً مبادئُ العقلِ تتوافقُ مع أنظمةِ الكونِ ، والعقلُ أداةُ معرفةِ اللهِ ، وهنيئاً لمن أعملَ عقلهَ فيما خُلق له ، والويلُ لمن أعملَ عقلهَ في غيرِ ما خُلق له ، في المكرِ ، والخداعِ ، والتضليلِ ، والتكذيبِ ، والاحتيالِ .

هؤلاء الذين وصلوا إلى منجزاتٍ تقتربُ من حدّ الخيالِ ، وصلوا إلى هذه المنجزاتِ عن طريق عقولهم ، ولو أنهم استعملوا عقولهم ولو بجزءٍ يسيرٍ ممّا ـ يستعملونه في إنجازاتهم العلميةِ لعرفوا اللهَ عز وجل لسعدِوا بقربه في الدنيا والآخرةِ ، قال تعالى :

﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾.

[عبس : الآية 17 – 23] .



فللعقلُ البشريُّ أداةٌ فعّالةٌ في معرفةِ اللهِ عز وجل .

ثالثاً ـ الفطرة الإنسانية :

لقد فطرَ ربنا سبحانه وتعالى الإنسانَ فطرةً عاليةً ، قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

[الروم : الآية 30] .

الفطرةُ تعني أنك تحبُّ الحقَّ ، وتكرهُ الباطلَ ، تحبُّ الخيرَ ، وتكرهُ الشرَّ ، تحبُّ العدلَ ، وتكرهُ الظلمَ ، تحبُّ الرحمةَ ، وتكرهُ القسوةَ ، على هذا فُطر الناسُ جميعاً .

وهناك فرقٌ بين الفطرةِ والصبغةِ كما سيأتي معنا ، الصبغةُ أنْ تكونَ عادلاً ، وأن تكونَ رحيماً ، وأن تكون منصفاً ، أما الفطرةُ فأنْ تحبَّ العدلَ والإنصافَ ، وأن تحبَّ الرحمةَ والإحسانَ ، والنفسُ البشريةُ متوافقةٌ مع الدينِ توافقاً تامًّا ، فهي لا ترتاحُ ، ولا تركنُ ، ولا تطمئنُّ ، ولا تستقرُّ ، ولا تسعدُ إلاّ إذا عرفتْ ربهَّا ، وانطوتْ تحت ظلهِّ تعالى .

ومن الآياتِ التي تؤكدُّ الفطرةَ أنّ اللهَ سبحانه وتعالى أخبرَ عن أصحابِ نبيِّه الكرامِ ، بأنهم يفرحون بما أُنزِلَ إليهم ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾.

[الرعد : الآية 36].



ما الذي جعلهم يفرحون ؟ إنه توافق أنفسهم مع شرع الله عز وجل .

ومن الآياتِ الدالّةِ على الفطرةِ :

﴿ ونَفْسٍ ومَا سوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا ﴾.

[الشمس : الآية 7 – 8].

المعنى الأول : أي : إنها إذا فجَرَتْ تعلمُ أنّها فجَرَتْ من دونِ أنْ يُعلِمَها أحدٌ ، قال عزوجل :

﴿ بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

[القيامة : الآية 14 – 15] .

ولو اتقَتْ لعلِمَتْ أنها تتقّي اللهَ من دونِ أنْ يُعلِمَها أحدٌ ، لذلك فإنّ الحجّةَ قائمةٌ على كلِّ إنسانٍ بالفطرةِ وحْدِها .

والمعنى الثاني : أَلْهَمَهَا طريقَ تقواها ، وأَلْهَمَهَا طريقَ فجورِها ، وإذا كان العقلُ يصلُ بك إلى اللهِ فإنّ الفطرةَ تكشفُ لك الخطأَ والصوابَ .

عَنْ نَوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ قَالَ : أَقَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ سَنَةً مَا يَمْنَعُنِي مِنْ الْهِجْرَةِ إِلَّا الْمَسْأَلَةُ ، كَانَ أَحَدُنَا إِذَا هَاجَرَ لَمْ يَسْأَلْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ ، قَالَ : فَسَأَلْتُهُ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[(3) مسلم (2553) ، الترمذي] .

وهذه هي الفطرةُ .

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِوَابِصَةَ : ((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ ، وَقَالَ : اسْتَفْتِ نَفْسَكَ ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ ، ثَلَاثًا ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ،وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ،وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ ،وَأَفْتَوْكَ)).



[أحمد (228/4) ، الدارمي (2533)].

لو أنّ الإنسانَ حقّقَ نجاحاً اقتصادياًّ ، وكان من أغنى الناس ، فإن في نفسِ ه فراغاً لا يملأه المالُ ، ولو أنه وصلَ إلى أعلى المناصبِ ، فإنّ في نفسِ ه فراغاً لا تملأه القوّةُ ، ولو أنه بلغَ أعلى مستوى من الصحّةِ ، فإنّ في نفسِهِ فراغاً لا تملأه الصحّةُ ، ولو كان له أتباعٌ كثيرون ، فإنّ في نفسِهِ فراغاً لا يملأه الأتباعُ ، في النفسِ فراغٌ لا يملأه إلا الإيمانُ بالله ، وطاعتهُ ، والقربُ منه ، وهذه هي الفطرةُ .

السيارةُ مثلاً مصمَّمَةٌ كي تسيرَ على طريقٍ معبدةٍّ مستوٍ ، فإذا سارت على طريقٍ وعرةٍ اضطربتْ ، وسمعتَ منها أصواتاً مزعجةً ، ولكنْ ليس العيبُ في صانعِها ، ولكنّ العيبَ في أنك استخدمتها في غيرِ ما صُنعت له ، أما إذا جعلتَ ها تسير على طريقٍ سويٍّ فإنك تشعرُ بالراحةِ ، ذلك لأنها توافقتْ مع ما صُنعتْ له .

إنّ اللهَ يعطي الصحّةَ للكثيرين من خَلْقِه ، ويعطي القوّةَ للكثيرين من خَ لْقِه ، ويعطي الجمالَ للكثيرين من خَلْقِه ، ويعطي المالَ للكثيرين من خَلْقِه ، أمّا السكينةُ فلا يعطيها إلاّ لأصفيائه المؤمنين .

السكينةُ شيءٌ لا يوصفُ ، إذا تجلّى اللهُ على عبدٍ بالسكينةِ كان أقوى الناسِ ، وكان أغنى الناسِ ، وكان أسعدَ الناسِ ، وكان أكثرَ الناس صبراً ، وأكثرَهم اطمئناناً ، وأكثرَهم إقبالاً ، وأكثرَهم توازناً .

رابعاً ـ الشهوات :

الحقيقةُ الأُولى :ما أودعَ اللهُ فينا الشهواتِ إلاّ لنرقى بها إلى ربِّ الأرضِ والسماواتِ ، فالشهواتُ سلّمٌ نرقى به ، أو دركاتٌ نهوي بها ، إنها حياديةٌ ، يمكن أن ترقى بك إلى الله ، ويمكن أن تهويَ بك ــ لا سمح الله ــ إلى أسفلِ سافلين .

الحقيقةُ الثانيةُ : ما أودعَ اللهُ فينا من شهوةٍ إلا وجعلَ لها قناةً نظيفةً تسري خلالَها ، فليس في الإسلامِ حرمانٌ ، بل فيه ضبطٌ وتنظيمٌ .

حبُّ النساءِ مثلاً ، قناتهُ النظيفةُ هي الزواجُ ، فإن تحرّكتَ بدافعٍ من هذه الشهوةِ



ضمنَ هذه القناةِ سعدتَ ، وأسعدتَ ، وإن تحرّكتَ بدافعٍ من هذه الشهوةِ في قناةٍ أخرى ما شرَعَها اللهُ عز وجل شقيتَ ، وأشقيتَ ، كالوقودِ السائلِ في السيارةِ ، إنْ وُضِعَ في المستودعاتِ المحكَمَةِ ، وسالَ في الأنابيبِ المحكَمَةِ ، واحترقَ في المكانِ المناسبِ ، وفي الوقتِ المناسبِ ولّد حركةً نافعةً ، أمّا إذا خرجَ الوقودُ عن مسارهِ ، وأصابَ المركبةَ شرارةٌ احترقتِ المركبةُ ومَن فيها ، لذلك " ما كان اللهُ ليعذّبَ قلباً بشهوةٍ تركهَا صاحبهُا في سبيل الله "

[أخرجه أبو نعيم في الحلية (256/9) من قول أبي سليمان الداراني] .

و"مَا تركَ عبدٌ شيئاً للهِ إلاّ عوّضهُ اللهُ خيراً منه في دينِهِ ودنياه "

[فيض القدير (530/1) من دون قوله : في دينه ودنياه].

و((ثلاثةٌ لا تَرى أعينُهم النارَ : عينٌ حرستْ في سبيلِ اللهِ ، وعينٌ بكتْ من خشيةِ اللهِ ، وعينٌ كفّتْ عن محارمِ اللهِ)) .

[الطبراني في الكبير (1003) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده] .

خامساً ـ التشريع :

إذا كان العقلُ مقياساً علمياً ، وكانت الفطرةُ مقياساً نفسياً ، فإنّ التشريعَ مقياسٌ على مقياسَي العقلِ والفطرةِ ، فالحسَنُ ما حسّنَهَ الشرعُ ، والقبيحُ ما قبحّه الشرعُ ، فإنْ توافقَ عقلُك مع الشرعِ فلْنَعِمْ بهذا العقلِ ، وإنْ لم يتوافقْ عقلُك مع الشرعِ فهذا العقلُ منحرفٌ ، لأنّ الأصلَ هو الشرعُ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ .

[المدثر : الآية 18 – 26] .

لقد خلقَ اللهُ سبحانه وتعالى الكونَ لنعرفَه به ، وأنزلَ التشريعَ لنعبدَه به ، ولا سبيلَ إلى عبادةِ اللهِ إلاّ بما شرعَ اللهُ ، فإنْ أردتَ أنْ تتقرّبَ من اللهِ عز وجل فالشرعُ الحنيفُ هو الذي يوصلك إلى الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.



. [الأحزاب : الآية 70 – 71] .

سادساً ـ حرية الاختيار :

لقد منحَ اللهُ سبحانه وتعالى الإنسانَ حريّةَ الاختيارِ ، قال تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾.

. [الأنعام : الآية 148] .

وقال تعالى :

﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

. [الكهف : 29] .

هاتان الآيتان أصلٌ في أنّ الإنسانَ مخيّرٌ .

وقال تعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

. [البقرة : 148] .

وقال :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

. [الإنسان : 3] .



وقال :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

[فصلت : 17]

بل إنّ مجرّدَ الأمرِ يقتضي الاختيارَ ، ومجرّدَ النهي يقتضي الاختيارَ .

ولو أن اللهَ أجبرنا على الطاعةِ لبطَلَ الثوابُ ، ولو أجبرنا على المعصيةِ لبطَلَ العقابُ ، ولو تركنا هملاً لكان هذا عجزاً في القدرةِ ، لذلك فإنّ اللهَ أمَرَ عبادهُ تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلّف يسيراً ، ولم يكلِّفْ عسيراً ، وأعطى على القليلِ كثيراً ، ولم يُعصَ مغلوباً ، ولم يُطَع مُكْرَهاً ، ولم يُرسلِ الأنبياءَ عبثاً ، ولم ينزلِ الكتبَ لعباً .

جاء رجلٌ إلى سيدنا عمرَ وقد شربَ الخمرَ ، فقال رضي الله عنه : " أقيموا عليه الحد ، فقال الرجلُ : واللهِ يا أميرَ المؤمنين إنّ اللهَ قدّرَ عليَّ ذلك ، فقال رضي الله عنه : أقيموا عليه الحدَّ مرّتين ، مرةً لأنه شربَ الخمرَ ، ومرةً لأنه افترى على الله ، ثم قال له : ويحك يا هذا ، إنّ قضاءَ اللهِ لم يخرجْك من الاختيارِ إلى الاضطرارِ .

الإنسانُ مخيّرٌ ، والحجّةُ قائمةٌ عليه ، مخيّرٌ فيما كُلِّفَ به ، ومُسيّرٌ في غيرِ التكليفِ ، لكنّ هذا التسييرَ لصالحه ، وسيأتي تفصيلُ ذلك في بحثِ التخييرِ والتسييرِ .

سابعاً ـ الزمن :

وهو عمر الإنسان الذي منحه الله تعالى له ، وحدد مددته وفق حكمته المطلقة المتعلقة بالخير المطلق ليكون هذا العمر وعاء لعمله وليستثمره في التعرف إلى ربه وفي العمل الصالح والدعوة إلى الله ، قال تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾



الخلاصة :

الإنسانُ هو المخلوقُ المكرَّمُ ، والمخلوقُ المكلَّفُ ، وهو مكلَّفٌ أن يزكِّيَ نفسهَ ، وتزكيةُ النفسِ تحتاجُ إلى كونٍ مُسخَّرٍ لتعرفَ اللهَ ، وإلى أداةٍ لتعرفَ اللهَ بها ، وهي العقلُ ، وإلى فطرةٍ متوافقةٍ مع أحكامِ الدِّينِ ، وإلى شهواتٍ مُحرِّكةٍ دافعةٍ ، وإلى اختيارٍ مثمِّنٍ ، وإلى تشريعٍ ضابطٍ .



المقوم الأول : الكون

01 - الكون
02 - أدلة التفكر
03 - مهمة التفكر
04 - كيف نقرأ الكون
05 - أسباب التقصير في حياة المسلمين
06 - طرائق التفكر من القرآن الكريم
07 - نماذج حياتية للتفكر



01 - الكون

نظرةٌ في الكونِ

في القرآنِ الكريمِ ما يزيدُ على ألفٍ وثلاثمئة آيةٍ كونيةٍ ، ألم يسألْ أحدُنا نفسَه : لماذا جاءت هذه الآياتُ في القرآنِ الكريمِ ؟ لو لم نكن مكلَّفين أن نتفكرَ فلماذا هذه الآياتُ ؟ هل يعقلُ أنْ يقولَ اللهُ كلاماً لا معنى له ؟ ليس هذا من المعقولِ إطلاقاً ، فما دام هناك آياتٌ كونيةٌ فهذا يعني أنّ هناك عبادةً اسمها التفكرُ ، وهي من أرقى العباداتِ ، لأنها تضعك أمام عظمةِ الله عز وجل ، وهذه العبادة شِبْهُ معطّلة في العالَمِ الإسلاميِّ ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

[آل عمران : الآية 190 – 191] .

وقال عزوجل :

﴿ قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

[(يونس : الآية 101] .

وقال :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

[يوسف : الآية 105].



فهناك آياتٌ كثيرةٌ نمرُّ عليها ، في الفلكِ ، والمجرّاتِ ، والطعامِ دون أنْ نتفكّرَ فيها :

﴿ فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .

[عبس : الآية 24].

هذا أمرٌ إلهيٌّ ، و كلُّ أمرٍ في القرآنِ يقتضي الوجوبَ ، قال تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ .

[الطارق : الآية 5 – 6].

في الكونِ ظاهرةٌ عجيبةٌ ، وهي أنّ الماءَ كأيِّ عنصرٍ آخر ، إذا برّدتَه ينكمشُ ، وإذا سخّنته يتمدّدُ ، إلاّ أنّ الماءَ ينفردُ عن بقيّةِ العناصرِ بميزةٍ ، وهي أنه عند الدرجةِ (+4) تنعكسُ خصائصُه فيتمدّدُ ، فإذا برّدتَه يزدادُ حجمُه ، فتقلُّ كثافتُه ، فيطفو على السطحِ ، ولولا هذه الظاهرةُ لما كنتَ تقرأُ الآن هذا الكتابَ ، ولمَا كان في الأرضِ كلِّها إنسانٌ ، هل تصدّقون هذا ؟

لولا هذه الظاهرةُ لما كانت حياةٌ على وجهِ الأرضِ ، لأنّ الماءَ لو لم يتمدّد عند التبريدِ لقلَّ حجمُه ، وازدادتْ كثافتُه فيغوصُ ، وبعد حين تتجمّدُ كلُّ المحيطاتِ ، وينعدمُ التبخُّرُ ، وينعدمُ المطرُ ، ويموتُ النباتُ ، ويموتُ الحيوانُ ، ويموتُ الإنسانُ ، وانتهى الأمرُ ، فمَن أودعَ هذه الميزةَ في الماءِ ؟



02 - أدلة التفكر

من خلالِ الكتابِ والسنةِ ، وأقوالِ الصحابةِ والتابعين .

ففي الكتاب قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

[آل عمران : الآية 190 – 191] .

﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فعلٌ مضارعٌ يفيدُ الخبرَ ، لكنّ الخبرَ يأتي في القرآنِ الكريمِ في معرضِ الإنشاءِ والأمرِ ، فإذا قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾

[الفرقان : من الآية 68]

أي : إياكم أنْ تزنوا ، فإنّ نفيَ الشيء أبلغُ من النهيِ عنه ، فإذا نهيتَ عن الشيءِ فكأنك تضعُ في ذهنِ الإنسانِ تصوُّرَ فعلِهِ ،لكن إذا نفيته كان النفيُ أبلغَ ، قال تعالى :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾

[البقرة : من الآية 233] .

ولم يقلْ : يا أيها الوالداتُ أرضعنَ أولادكنّ ، لأنه من شأنِ الوالداتِ إرضاعُ أولادهنّ ، فهذا خبرٌ جرَى مجرى الإنشاءِ والأمرِ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : إنّ المؤمنين من شأنِهم التفكُّرُ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ، وهو لازمٌ من لوازمِهم ، وخصيصةٌ من خصائصِهم ، وسِمَةٌ من سماتِهم .

في صحيحِ ابن حبانَ عن عطاءٍ أنّ عائشةَ رضي الله عنها قالت : أتاني رسول الله ﷺ في ليلتي ، وقال : ((يَا عَائِشَةُ ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَامَ إِلَى الْقِرْبَةِ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ ، ثُمَّ سَجَدَ حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ ، حَتَّى أَتَى بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله



مَا يُبْكِيكَ ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟! فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ : وَيْحَكَ يَا بِلاَلُ ! وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا ، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا)) .

[صحيح ابن حبان (620)] .

قيل للأوزاعي : " ما غايةُ التفكُّرِ فيهنّ ؟ قال : يقرأُهنّ ويعقلُهنّ " .

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ : ((أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ يَكُونَ صَمْتِي فِكْراً ، وَنُطْقِي ذِكْراً ، وَنَظَرِي عِبْرَةً)) .

[رواه القضاعي في مسند الشهاب (1159) ، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (151/6) : " هذا حديث معضل " ، وذكره القرطبي في تفسيره (346/7) .]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا)) .

[رواه البخاري (590) ، مسلم (437) ، الترمذي (225) ، أحمد (7724)] .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَامَّةٍ ، تَامَّةٍ ، تَامَّةٍ)) .

[الترمذي (586)] .

أليس التفكُّرُ من الذِّكرِ ، فإذا صلّى الإنسانُ الفجرَ ، وقرأ شيئًا من القرآنِ ، وتفكّرَ في آيةٍ من آياتِ اللهِ ، ثم ذكَرَ اللهَ تعالى كان له الأجرُ الكبيرُ من الله تعالى .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال ﷺ : ((تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ ، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا قَدْرَهُ)) .

[الفردوس بمأثور الخطاب (2318)] ،

إذًا التفكرُ في ذاتِ اللهِ ممنوعٌ ، وحرامٌ ، ومهلِكٌ ، والتفكّرُ في مخلوقاتِ اللهِ فريضةٌ من أرقى الفرائضِ .

وعن النبيِّ ﷺ أنه خرج على قومٍ ذاتَ يومٍ وهو يتفكّرون ، فقال : ((مَا لَكُمْ لاَ



تتفكَّرُونَ ؟ ـــ وهذا اسمُه في البلاغةِ تجاهلُ العارفِ ـــ فقالُوا : نَتفكَّرُ في خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فقالَ ﷺ : فكذَلِكَ فافعَلُوا ، تفكَّرُوا في خَلْقِهِ ، وَلاَ تتفكَّرُوا فيهِ)) .

[تفسير ابن كثير (4 /386)].

أحد التابعين قال : " ركبتُ إلى أمّ ذرٍّ بعد موت أبي ذرٍّ ، فسألتُها عن عبادةِ أبي ذرٍّ فقالت : " كان نهارُه في ناحيةِ البيتِ يتفكّرُ " .

وعن الحسن : " تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ " .

وعن الفضيل : " الفكرُ مرآةٌ ، تريك حسناتِك وسيئاتِك " .

وقيل لإبراهيم : " إنك تطيلُ الفكرَ ، فقال : الفكرُ مخُّ العقلِ " .

وكان سفيانُ بن عيينةَ يقول هذا البيتَ :

إذا المرءُ كانت له فكرة ففي كلِّ شيء له عبرة

والإمامُ الحسنُ يقول : " من لم يكن كلامُه حكمةً فهو لغوٌ ، ومن لم يكن سكوتُه تفكّرًا فهم سهوٌ ، ومن لم يكن نظرُه اعتبارًا فهو لهوٌ " .

يقول أحدُ التابعين : " ما طالت فكرةُ امرئٍ قطُّ إلا علِمَ ، وما علِمَ امرؤٌ قطُّ إلا عملَ ".

وقال عمرُ بن عبد العزيز : " الفكرةُ في نعمِ اللهِ عز وجل من أفضلِ العبادةِ " .

قال بشرٌ : " لو تفكّرَ الناسُ في عظمةِ اللهِ ما عصوا الهَاعز وجل " .

إذًا المعصيةُ أساسُها عدمُ الخشية ، وعدمُ الخشيةِ أساسُه عدمُ العلمِ ، فالأمرُ يدور بين علمٍ ، فخشيةٍ ، فطاعةٍ ، أو جهلٍ ، فعدمِ خشيةٍ ، فمعصيةٍ .

يقول أبو سليمان الداراني : " عوِّدوا أعينَكم البكاءَ ، وقلوبكَم التفكّرَ " .

قال بعضهم : " الفكرُ في الدنيا حجابٌ عن الآخرةِ ، والفكرُ في الآخرةِ يورثُ الحكمةَ ، ويحيا القلبُ به " .

التفكر : علم وحال وعمل :

إنك إنْ تفكّرتَ علمتَ ، وإن علمتَ نشأَ في قلبك حالٌ ، هذا الحالُ يدفعك إلى العملِ ، فالفكرُ أساسُ المعرفةِ ، والمعرفةُ أساسُ الانفعالِ ، والانفعالُ أساسُ السلوكِ ، فإن صحّتْ فكرتُك صحَّ إدراكُك ، وصحّ انفعالُك ، وصحّ عملُك ، ودخلتَ الجنةَ .



القلبُ يطمئنُّ بذكرِ الله ، لكنّ الفكرَ يزيدُ المرءَ علماً .

لو فرضنا شمعةً على الطاولةِ ، وإلى جانبها عودُ ثقابٍ ، والغرفةُ مظلمةٌ ، وهناك على الطاولةِ قطعٌ من الأحجارِ ، وقطعةٌ من الماسِ ، وثمنُ هذه القطعةِ مئاتُ الألوفِ ، إنك إنْ أمسكتَ عودَ الثقابِ ، وأشعلتَ هذه الشمعةَ استنارَ المكانُ ، فرأيتَ الماسَ ، ففرحت فرحاً عظيماً ، فتحركتَ نحوه فالتقطتهُ ، فسعدتَ به ، وهذا هو الترتيبُ الطبيعيُّ ، التفكّرُ يحتاج إلى تذكّرٍ ، والتفكرُ يوصلُ إلى العلمِ ، والعلمُ يوصلُ إلى الحالِ ، والانفعالُ يولِّدُ العملَ ، والعملُ ثمنُ الجنةِ ، فالبدايةُ من التفكّرِ .

إنسانٌ مرتاحٌ في بستان ، نظرَ فإذا بأفعى ، انطبعتْ صورةُ هذه الأفعى على الشبكيةِ ، الشبكيةُ نقلتها إلى الدماغِ ، هنا حصلَ الإحساسُ ، وفي الدماغِ الإدراكُ ، لما أدركَ قفزَ هارباً ، علاقةُ الإنسانِ بالمحيطِ الخارجيّ وَفقَ قانونٍ ؛ ثلاثُ كلمات ؛ إدراكٌ ، وانفعالٌ ، وسلوكٌ .

إذا حصلَ العلمُ في القلبِ تغيّرَ حالُ القلبِ ، وإذا تغيّرَ حالُ القلبِ تغيّرتْ أعمالُ الجوارحِ ، فالعملُ تابعٌ للحالِ ، والحالُ تابعٌ للعلمِ ، والعلمُ تابعٌ للتفكّرِ ، والتفكّرُ تابعٌ للتذكّرِ ، تذكّرٌ ، فتفكّرٌ ، فعلمٌ ، فحالٌ ، فعملٌ ، ثم جنةٌ بعد ذلك .

03 - مهمة التفكر

إنّ معرفةَ الله تعالى من أصولِ الدين ، ويُعرَفُ اللهُ من خلالِ التفكّرِ في خَلْقه (الآيات الكونية) ، ويُعرَف من تدبُّرِ كلامِه ، (الآيات القرآنية) ، ويُعرَف من النظرِ في أفعاله .

والتفكّرُ هو أوسعُ ، وأسرعُ طريقٍ للوصول إلى الله تعالى ، إنه يعني أنْ يعرفَ الإنسانُ ربّه ، وكلما ازدادت معرفتُه بالله ازدادتْ طاعتُه له ، و ازدادت خشيتُه له ، وازداد إقبالُه عليه ، وازداد رجاؤُه لرحمته ، وازداد عملُه للجنةِ ، واتقاؤُه للنارِ ، فبقدرِ معرفتك باللهِ تنصاعُ لأمرِه ، والتفكّرُ يرفعُ مستوى المعرفةِ .



يعجبُ الإنسانُ أحياناً لآلةٍ ، أو بحاسوبٍ ، أو بطائرةٍ ، وعندها يعظّمُ الصانعَ ، ويشعرُ أنّ المصمّمَ على مستوىً ذوقيٍّ رفيعٍ جداً ، وعلى مستوىً من الدقّةِ بالغةٍ جداً ، وعلى مستوى من العلمِ عالٍ جداً ، فأهلُ الدنيا يُعظّمون بعضهم بعضاً ، أمّا المؤمنُ فيُعظّمُ ربَّ الكونِ من خلالِ خَلْقِهِ ، الإنسانُ يأكلُ ، ويشربُ ، وينتفعُ بالكونِ ، ولكنه لا ينسى أنْ يُطالعَ ما في الكونِ من آياتٍ ، كالأمطارِ ، والسحبِ ، والجبالِ ، والأنهارِ ، والبحيراتِ ، وأنواعِ الخضارِ والفواكهِ ، هذه كلّها بين يديه .

الكونُ مسخَّرٌ لنا مرّتين :

الكونُ بكلّ ما فيه مسخَّرٌ لنا مرّتين ، تسخيرَ تعريفٍ ، وتسخيرَ تكريمٍ ، له مهمّةٌ تعريفيةٌ ، ومهمّةٌ نفعيةٌ ، أمّا العالَمُ الغربيّ فقد برعَ أيّما براعةٍ في الانتفاعِ بالكونِ ، لكنّ وظيفةَ الانتفاعِ إذا قيستْ بوظيفةِ التعريفِ ليست بشيءٍ ، لأنّ الانتفاعَ ينتهي عند الموتِ ، لكنّ وظيفةَ التعريفِ لا تنتهي ، بل تنفعُ الإنسانَ إلى أبد الآبدين ، وفي الحديث الشريف عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ ((أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ : هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا ، وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا)) .

[أبو داود (5092) عن قتادة ، والطبراني في الأوسط (311) عن أنس ، وفي الكبير (4409) عن رافع بن خديج] .

أي : هذا الهلالُ يُرشدني إلى اللهِ ، وينفعني في الدنيا ، فحينما نستغلُّ الهلالَ للانتفاع به بقي أنْ نستغلّ مهمّتَه في التعريفِ باللهِ عز وجل .

لو فرضنا أنّ إنساناً ثريّاً يمكنُ أنْ يأكلَ العسلَ كلَّ يومٍ ، هذا الإنسانُ استطاعَ أنْ يستفيدَ من العسلِ الفائدةَ الدنيويّةَ المحدودةَ !

وإنسانٌ آخرُ لا يسمحُ له دخلُه المحدودُ أنْ يأكلَ العسلَ إطلاقًا ، إلاّ أنه قرأ مقالةً ، أو سمعَ حديثاً عن فوائدِ العسلِ ، وعن عظيمِ صنعِ اللهِ فيه ، فاقشعرَّ جلدُه ، ودمعتْ عينُه من خشيةِ الله ، لقد حقّق الهدفَ الأسمى من خَلْقِ العسلِ ، لقد حقّقَ الفائدةَ الأخرويّةَ الأبديّةَ .



حاولْ ألاّ تفوِّتْ على نفسِكِ أيَّ مشهدٍ من هذا الكونِ قبلَ أنْ تستفيدَ منه الفائدةَ التي خُلِقَ من أجلِها ، فكلُّ مخلوقٍ على وجهِ الأرضِ مسخَّرٌ لك ، ولفائدتين : دنيويّةٍ محدودةٍ ، وأخرويّةٍ أبديّةٍ .

فإياك أنْ تشربَ كأسَ ماءٍ قبل أنْ تنظرَ في عظمةِ خَلقِ الماءِ ، وإيّاك ألاّ تحمدَ اللهَ بعدَ ذلك على نعمةِ الماءِ .

إنك إنْ شربتَ الماءَ فحسبُ فقد رضيتَ بالنزرِ اليسيرِ ، وقنعتَ بفائدةٍ محدودةٍ تنتهي عند العطشِ من جديدٍ ، ولربمّا صحّ لنا أن نقيسَ على ما وردَ عن سيدنا عمرَ أنه أمسك تفاحةً ثم قال : " أكلتها ذهبتْ ، أطعمتها ــ أي تصدقتُ بها ــ بقيتْ " ، وكذلك نقول : إنك إن أكلتَ التفاحةَ دون أن تذكّركَ بخالقِها فقد فنيتْ ، وإن ذكّرتكَ باللهِ فقد بقيتْ ، وأخذتَ منها الفائدةَ الأخرويّةَ الدائمةَ التي تعلو كثيراً على فائدةِ الغذاءِ الدنيويّةِ المؤقّتةِ .

سؤال وجواب :

لو قال أحدُهم : إنّ كلَّ عملي في العلمِ ، فأنا طبيبٌ ، وعندي اطّلاعٌ دقيقٌ جداً على خَلقِ الإنسانِ ، أليس هذا تفكراً ؟ فبماذا نجيبُه ؟

هؤلاء العلماءُ الكبارُ الذين يرون في مخابرِهم من آياتِ اللهِ الدالّةِ على عظمتِه الشيءَ الذي لا يكاد يُصدَّقُ ، فهناك سُفنُ أبحاثٍ مصفَّحةٌ ، معها أضواء كاشفةٌ ترى بأمّ عينك في خليجِ مريانةَ ، الذي يبلغُ عمقُه اثني عشرَ ألفَ مترٍ في المحيطِ الهاديِّ ، ترى أنواعَ الأسماكِ ، والكائناتَ البحريةَ ، والنباتاتَ البحريةَ ، والذين وصلوا إلى القمرِ رأوا الأرضَ كرةً ، وصوَّروها ، وهؤلاء الذين يرون الكائناتِ الدقيقةَ في المخابرِ الجرثوميةِ ، وهؤلاء الذين يرون المجراتِ العملاقةَ في التلسكوباتِ الفلكيةِ ، وهؤلاء الذين يكبِّرون النسجَ البشريةَ ، فإذا منظرُ النسيجِ البشريّ شيءٌ لا يكاد يُصدّقُ ، هؤلاء لِمَ لمْ يؤمنوا ؟ لِمَ لم تخشعْ قلوبهم لذكرِ اللهِ ؟ لِمَ لا يعرفون اللهَ ، وهم يقفون أمامَ آياتٍ باهراتٍ ؟



لو كان للإنسانِ هدفٌ غيرُ معرفةِ اللهِ عز وجل فإنك لو وضعتَ أمامه آلافَ الآياتِ لا يرى منها شيئاً ، فهناك في الطبّ والفيزياءِ والكيمياءِ آياتٌ كثيرةٌ تدَعُ الحليمَ حيرانَ ، ومع ذلك لا يتأثّرُ المختصّون بها ، والسببُ أنهم يهدفون إلى شيءٍ آخرَ ، فالإنسانُ لا يرى إلا حاجتَه ، ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

[الجاثية : الآية 23].

إنّ الذي يبحثُ عن شهوته ، يبحثُ عن مالٍ وفيرٍ ، وجاهٍ عريضٍ لا يرى الحقائقَ ، شأنُه شأنُ آلةِ تصويرٍ غاليةٍ جداً ، ولكن لا يوجد فيها (فيلم) ، قد تلتقطُ أجملَ المناظرِ ، ولكنْ لعدمِ وجودِ (الفيلم) لا ينطبعُ عليها شيءٌ .

هؤلاء الأشخاصُ يعيشون مع حقائقَ عجيبةٍ ، ولكنّ هذه الحقائقَ لا تنقلهم إلى اللهِ ، لأنهم ما أرادوا أن يعرفوا اللهَ ، فمن أجلِ أن نخزّنَ الصورَ لا نستفيدُ من آلةٍ غاليةِ الثمنِ بلا (فيلم) ، ونستفيدُ من آلةٍ رخيصةٍ جداً مع (فيلم) .

التفكّرُ عمليةٌ فكريةٌ تحتاجُ إلى موادَّ أوليةٍ ، لو فرضنا إنساناً قرأ موضوعًا عن الطيورِ ، هذا الموضوعُ ليس تفكّراً ، وقراءةُ هذا الموضوعِ ليست تفكّراً ، ولكنه موادُّ أوليةٌ للتفكرِ تحتاجُ إلى تصنيعٍ ، التفكّرُ في خلقِ الله هو القفزةُ نحو الأعلى ، فالتفكرُ بلا بضاعةٍ لا يقدّم شيئاً ، والبضاعةُ بلا تفكّرٍ لا تقدِّم شيئاً ، الغربُ عندهم بضاعةٌ بلا تفكّرٍ ، عندهم حقائقُ دقيقةٌ عن الكونِ ، ولهم مؤلَّفاتٌ تذهبُ بالعقول .

إنّ الأكملَ أنْ تملكَ معلوماتٍ دقيقةً عن الكونِ ، ومن خلالِ هذه المعلوماتِ تقفزُ بها إلى معرفةِ اللهِ عز وجل .



04 - كيف نقرأ الكون

ينبغي أن نقدرَ اللهَ حقَّ قدْرِه عن طريقِ العلمِ ، وقد عبّر اللهُ جل جلاله عن العلمِ بمفتاحِه ، وهو فعل : ﴿ اِقْرَأْ ﴾

[العلق : من الآية 1].

وفي اللغةِ أنّ الفعلَ إذا حُذف مفعولُه أُطلق معناه ، فنقرأ في كتابِ اللهِ ، أو في بيانِ المعصومِ ﷺ ، أو في كتابِ الكونِ ، فالكونُ قرآنٌ صامتٌ ، والقرآنُ كونٌ ناطقٌ ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي ، لذلك كانت أولُ آيةٍ في القرآنِ الكريمِ : ﴿ اِقْرَأْ ﴾ .

الأصلُ الأولُ في هذه القراءةِ : أنْ تكونَ قراءةً إيمانيةً تنتهي إلى الإيمانِ بالله ، موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، خالقاً ، ومربّياً ، ومسيّراً ، قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

[العلق : الآية 1].

وهذه القراءةُ مقدورٌ عليها ، بدليلِ أنها تنطلقُ من أقربِ شيءٍ إلى الإنسانِ ، من نفسِه التي بين جَنْبَيْه ، قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِكَّ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .

[العلق : الآية 1 – 2] .

أمّا الأصلُ الثاني لهذه القراءةِ : فهو أن تكونَ قراءةَ شكرٍ وعرفانٍ :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾

[العلق : الآية 3].



أساسُها شكرَ المُنعِمِ على نعمةِ الإيجادِ ، ونعمةِ الإمدادِ ، ونعمةِ الهدى والرشادِ ، لقد خلقَ اللهُ الإنسانَ ليسعِدَه في الدنيا والآخرةِ ، قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ .

[هود : من الآية 119].

القراءةُ الأولى : قراءةُ إيمانٍ .

والثانية : قراءةُ شكرٍ وعرفانٍ .

لقد سخّر اللهُ الكونَ لهذا الإنسانِ تسخيرَ تعريفٍ وتكريمٍ ، أمّا تسخيرُ التعريفِ فكلُّ ما في السماوات والأرضِ ينطقُ بوجودِ اللهِ ووحدانيته وكمالِه ، ويشفُّ عن أسمائِه الحسنى وصفاتِه الفضلى ، وهو مجالٌ رحبٌ للتفكّرِ في خَلقِ السماواتِ والأرضِ ، قال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[الزمر : الآية 67]

أي : إنّ تقديرَ اللهِ حقَّ قدْرِه طريقُه التفكّرُ في خَلقِ السماواتِ والأرضِ ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[الجاثية 13] .

، هذا تسخيرُ التعريفِ .



وأما تسخيرُ التكريمِ فقد قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

[الإسراء : الآية 70] .

إنّ من الواجبِ على الإنسانِ تجاهَ تسخيرِ التعريفِ أنْ يؤمنَ ، وتجاهَ تسخيرِ التكريمِ أنْ يشكرَ ، فإذا آمنَ وشكرَ فقد حقّقَ الغايةَ من وجودِه ، لذلك يتوقّفُ التأديبُ والمعالجةُ ، يقولُ الله عزّ وجل :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

[النساء : 147] .

وأمّا الأصلُ الثالثِ لهذه القراءةِ : فهو قراءةُ الوحيِ والتلقّي ، فمعرفةُ طرفٍ من حقيقةِ الذاتِ الإلهيّةِ ، وكمالِها المطلق ، ومعرفةُ الماضي السحيق ، والمستقبلِ البعيدِ ، ومعرفةُ حقيقةِ الحياةِ الدنيا والحياةِ الآخرةِ ، ومعرفةُ حقيقةِ الإنسانِ ، وسرِّ وجودِهِ ، وغايةِ وجودِه ، ومعرفةُ حقيقةِ النبوّاتِ والرسالاتِ ، ومعرفةُ حقيقةِ المنهجِ ودقائقِهِ ، ومفرداتِ التكاليفِ وتفاصيلِها ، هذا كلُّه يُؤخَذ من الوحيين ؛ الكتابِ والسُّنةِ ، وهذا مما يستنبطُ من قوله تعالى :

﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

[العلق : 5].

ولكن لا يعني هذا الكلامُ أنّ المسلمين اليومَ يقرؤون هذه القراءاتِ الثلاثَ ، ولو فعلوا لما استطاعَ أحدٌ أن ينالَ منهم ، ولكنْ هذا من قَبيلِ ما ينبغي أنْ يكونَ ،لا ما هو كائنٌ .



أما إذا قرأَ الإنسانُ ما في الكونِ قراءةً نفعيّةً ، ليس غيرُ ، وابتعدَ عن هذه القراءاتِ الثلاثِ كان الطغيانُ والعدوانُ

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾

[العلق : الآية 6- 7].

وهذا طغيانُ العلمِ الذي يقودُ الإنسانَ الذي قرأ هذه القراءةَ النفعيّةَ بعيداً عن الإيمانِ والعرفانِ ، يقوده هذا العلمُ إلى القوّةِ والطغيانِ ، فيبني مجدَه على أنقاضِ الآخرين ، ويبني غناه على فقرِهم ، وحياتَه على موتِهم ، وقوّتَه على ضعفِهم ، وأَمْنَه على خوفِهم ، وعزّه على ذلّهم ، وبهذا يكون قد طغى بالعلمِ ، واستخدمَه لغيرِ ما أُريدَ منه .

وقد ضربَ اللهُ لنا مثلاً في القرآنِ الكريمِ قومَ عادٍ كنموذجٍ متكرّرٍ لهذا الإنسانِ الذي قرأ قراءةً نفعيّةً ، فطغى ، وبغى ، ونسي المبتدى والمنتهى ، ونسي الجبّارَ الأعلى ، فعادُ تفوّقتْ في شتّى الميادينِ ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

[الفجر : الآية 6- 8] .

وعادٌ تفوّقتْ في العمرانِ والحصونِ والمنشآت ، قال تعالى :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ .

[الشعراء : 128 – 129] .

وعادٌ تفوّقتْ بالقوةِ العسكريةِ ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ .

[الشعراء : الآية 130].



وعادٌ تفوّقتْ بالناحيةِ العلميةِ

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ .

[العنكبوت : الآية 38] .

ولم يكن فوقَ عادٍ إلا اللهُ ، بدليلِ أنّ اللهَ ما أهلكَ قوماً إلا وذكّرهم أنه أهلكَ مَن أشدُّ منه قوّةً ، إلا عاداً حين أهلكها قال :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ .

[فصلت : الآية 15] .

وعادٌ بسببِ تفوّقِها وبُعْدِها عن اللهِ ، وقراءتِها لِما في الكونِ قراءةً نفعيّةً تكبّرتْ بغيرِ حقٍّ ، واستعلتْ ، وتغطرستْ ، وبَغَتْ ، لا في بلدِها فحسبُ ، بل في كلّ البلادِ ، قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ .

[فصلت : من الآية 15] .

فماذا كانت محصِّلةُ هذا التفوّقِ المادي ؟ لقد طغوا في البلادِ ، والطغيان مجاوزةُ الحدّ بالعدوانِ ، ولم يقل : طغوا في بلدهم ، بل قال :

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾

[الفجر : الآية 11]

أي : في البلادِ كلِّها ، ليصفَ طغيانَهم بالشمولِ ، وأنهم أكثروا فيها الفسا دَ ، ولم يقل : فسدوا ، ليبيّنَ أنّ إفسادَهم عمّ الأرضَ .



والحديثُ عن مصيرِ عادٍ في القرآنِ الكريمِ لا يخصّ عاداً الأولى ، بل يتجّهُ إلى كلّ قومٍ سلكوا مسلكَ عادٍ ، فقومُ عادٍ نموذجٌ متكرّر ، بدليلِ أنّ اللهَ تعالى يقول :

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى ﴾

[النجم : الآية 50] .

وهذا يعني فيما يعني أن هناك عاداً ثانيةً ، أو انتظروا عاداً ثانيةً ، لقد كان تأديبُهم بالأعاصيرِ التي تدمّر كلَّ شيءٍ أَتَتْ عليه ، قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

[الحاقة : الآية 6-7] .

فماذا كانت النتيجةُ ؟ قال عزوجل :

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾

[الفجر:13- 14] .

أي : بالمرصادِ لكلّ مَن يكونُ على شاكلةِ عادٍ مِن أممِ الأرضِ.

05 - أسباب التقصير في حياة المسلمين

لو سألَ أحدُنا نفسَهُ سؤالاً : لماذا أنا مقصرٌ ؟ لماذا أقترفُ بعضَ الأخطاءِ ؟ لماذا لستُ على ما ينبغي من الورعِ ؟ نقول له : هناك نقصٌ في معرفةِ اللهِ .

لأنّ الإنسانَ حينما يعرفُ الآمرَ ، ثم يعرفُ الأمرَ يتفانى في طاعتِه ، لكنه إنْ عرفَ الأمرَ ، ولم يعرفِ الآمرَ تفنّنَ في التفلّتِ من الأمرِ .



وحينما يعلمُ الإنسانُ أنّ علمَ اللهِ يطولهُ ، وأنّ قدْرتهَ تطولهُ فلابد من أنْ يطبقَ أمْرَه أبسطُ مثال ، إشارةُ المرورِ الحمراءُ تمنعُ السائقين مِن تجاوزِها ، لأنّ علْمَ الشرطةِ يطولُ السائقَ ، وقدرتُهم تطولُه عن طريقِ سلطةُ القانونِ .

ولكنْ متى يستطيعُ السائقُ أنْ يتجاوزَ الإشارةَ ؟ في حالتين : عند الساعةِ الثانيةِ ليلاً ، حيث لا يطولُه علمُ الشرطةِ ، أو لو أنه كان فرضاً أقوى من واضعِ القانونِ ، إذ لا تطولُه قدْرتُه .

قال تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

[الطلاق : الآية 12].

إنّ علّةَ خَلْقَ السماواتِ والأرضِ وما بينهما أنْ يعلمَ الإنسانُ أنّ قدرةَ اللهِ تطولُه ، وأنّ علْمَه يطولُه ، وعندها لنْ يعصيَه .

لقد هان أمرُ اللهِ على المسلمين فهانوا على اللهِ ، ولماذا هانَ أمرُ اللهِ عليهم ؟ لأنهم ما عظّموا اللهَ عز وجل :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ .

[الحاقة : الآية 30 – 33].

كان مؤمناً باللهِ ، ولكنه ليس مؤمناً باللهِ العظيمِ .



بين العبادةِ والعلمِ

ثمّةَ أستاذٌ في الجامعةِ له حاجبٌ يعملُ في هذه الجامعةِ منذ ثلاثين عاماً ، وكلّما دخلَ هذا الأستاذُ إلى الجامعةِ وقفَ الحاجبُ ، ورحّبَ به ، ثم جلسَ .

والسؤال : هل تزدادُ معرفةُ الحاجبِ بهذا الأستاذِ طوالَ تلك الأعوامِ ؟!

أمّا الطالبُ الذي يحضرُ المحاضراتِ عند هذا الأستاذِ فإنه تزدادُ معرفتُه بمدرِّسِه كلّما حضرَ عنده درساً .

وكذلك الإنسانُ لو أنه اكتفى بعبادتِه لله زمناً طويلاً ، فإنّ مقاوَمته تكون هشةً ، ولا يصمدُ أمام الإغراءِ ، و لا أمام الضغوطِ ، أمّا المؤمنُ إذا عرفَ اللهَ عز وجل فلا يمكن أنْ تغيِّرَ موقفهَ سبائكُ الذهبِ اللامعةُ ، ولا سياطُ الجلادين اللاذعةُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :((فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ)) .

[الترمذي (2682) ، ابن ماجه (222) ، واللفظ له].

06 ـ طرائق التفكر من القرآن الكريم

أولاً : التفكّرُ في الشيءِ وأصلِهِ : قال تعالى :

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .

[العلق : الآية 2].

ثانياً : التفكّرُ في الشيءِ وعدمِه ، قال تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾

[الملك : الآية 30] .

تصور بلداً بلا ماء ، ما قيمته ؟



ثالثاً : التفكّرُ في الشيءِ وخلافِ ما هو عليه ، قال تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ .

[القصص : الآية 71] .

مثال عملي :

إذا أردتَ أن تفكّرَ صباحاً في آياتِ اللهِ عز وجل ، واخترتَ آيةً من هذه الآياتِ ، ولتكن العين مثلاً : فكّر مِن أين نشأتْ هذه العينُ ؟ وكيف تكوّنت شبكيتُها وقزحيتُها ؟ وما إلى هنالك ، لقد كان الإنسانُ كلُّه يوماً علقةً في جدارِ الرحمِ .

ثم فكّرْ في إنسانٍ بلا بصرٍ ؛ لو أنّ اللهَ عز وجل خلقَنا بلا عينين ما قيمةُ الألوانِ ؟ ما قيمةُ الأزهارِ والأطيارِ ؟ ما قيمةُ الجمالِ كلِّه بلا هاتين العينين ؟

ثم فكّرْ كيف يكونُ الأمرُ لو لم يكن للإنسان إلا عينٌ واحدةٌ ، أو لو لم تكن العينُ في مكانها الآمنِ ، ففكّر لو أنها كانت في مكانٍ آخرَ ، في الصدرِ مثلاً ، أو في الظهرِ ، أو خلفَ الرأسِ .

07 ـ نماذج حياتية للتفكر

إليك هذه النماذج المادية الملموسة للتفكر .

1- جسمُ الإنسانِ :

هناك في حياةِ كلٍّ منّا آياتٌ معجزةٌ صارخةٌ دالّةٌ على عظمةِ اللهِ عزّ وجل ، منها جسمُنا الذي هو أقربُ شيءٍ إلينا ، ففي رأسِ كلٍّ منا ثلاثمئةُ ألفِ شعرةٍ ، لكلِّ شعرةٍ بصلةٌ ، ووريدٌ وشريانٌ ، وعضلةٌ وعصبٌ ، وغدةٌ دهنيةٌ ، وغدةٌ صبغيةٌ .



وفي شبكيةِ العينِ عشرُ طبقاتٍ ، فيها مئةٌ وأربعون مليونَ مستقبلٍ للضوءِ ، ما بينَ مخروطٍ وعُصَيَّةٍ ، ويخرجُ من العينِ إلى الدماغِ عصبٌ بصريٌّ ، يحوي خمسمئة ألفِ ليفٍ عصبيٍّ .

وفي الأذنِ ما يشبهُ شبكةَ العينِ ، فيها ثلاثونَ ألفَ خليةٍ سمعيةٍ لنقلِ أدقِّ الأصواتِ .

وفي الدماغِ جهازٌ يقيسُ التفاضلَ الزمنيَّ لوصولِ الصوتِ إلى كلٍّ مِن الأذنينِ ، وهذا التفاضلُ يقلُّ عن جزءٍ مِن ألفٍ وستمئة جزءٍ من الثانيةِ ، وهو يكشفُ للإنسانِ جهةَ الصوتِ .

وعلى سطحِ اللسانِ تسعةُ آلافِ نتوءٍ ذوقيٍّ ، لمعرفةِ الطعمِ الحلوِ ، والحامضِ ، والمُرِّ ، والمالحِ ، ثم تنقلُ هذا الطعم إلى الدماغِ .

وإنّ كلَّ حرفٍ ينطقهُ اللسانُ يسهمُ في تكوينهِ سبع عشرَةَ عضلةً .

مَن يصدِّق أنّ في مخاطيةِ الفمِ ، أعني الغشاءَ الداخلي للفمِ خمسمئةِ ألف خلية ؟! يموتُ في كلِّ خمسِ دقائقَ نصفُ مليونِ خليةٍ في الجدارِ الداخلي ، ليحلّ محلَّها نصفُ مليونِ خليةٍ جديدةٍ .

إنّ كرياتِ الدمِ الحمراءَ لو صُفَّ بعضُها إلى جانبِ بعضٍ لزاد طولُها على محيطِ الأرضِ ستةَ أضعافٍ .

إنّ في كلِّ ميليمتر مكعبٍ من الدمِ خمسةَ ملايين كريةٍ حمراء ؟! وإنّ كلَّ كريةٍ حمراءَ تجولُ في الدمِ في اليومِ الواحدِ ألفاً وخمسمئة جولةٍ ، تقطع فيها ألفاً ومئةً وخمسين كيلو متراً .

يضخُّ القلبُ مِنَ الدمِ في عمرٍ متوسّطٍ ما يملأ أكبرَ ناطحاتِ سحابٍ في العالَ مِ ، وينبض في الدقيقةِ الواحدةِ مِن ستينَ إلى ثمانينَ خفقةً ، وينبض يوميًا مئةَ ألف مرة ، يضخُّ مِن خلالِها ثمانيةَ آلاف لتر ، والمئتا لتر تعادلُ برميلاً ! وقد أجرى بعضُ العلماءِ حساباً عن ضخِّ القلب للدم في العمرِ فوجده ستةً وخمسين مليون جالون ، والجالونُ يعادلُ خمسة ألتار .



يستهلكُ الإنسانُ في الثانية الواحدةِ مئةً وعشرين مليونَ خليةٍ .

في دماغِ الإنسانِ أربعةَ عشرَ مليارَ خليةٍ قشريةٍ ، ومئةُ مليارِ خليةٍ استناديةٍ لم تُعرفْ وظيفتها بعدُ ، وهو أعقدُ ما فيهِ ، ومع ذلك فهو عاجزٌ عن فهمِ ذاتهِ .

وفي الرئتين سبعمئة مليون سنخٍ رئويٍّ ، كعنقود العنب ، حبّةُ العنبِ في الرئةِ كأنها سنخٌ رئويٌّ ، وهذه الأخيرةُ لو نُشِرتْ لاحتلَّتْ مساحةَ مئتيْ متر مربّعٍ ، وإن هاتين الرئتين تخفقان في اليومِ خمساً وعشرينَ ألف مرة ، وتستنشقان مئةً وثمانين مترًا مكعباً .

وفي الكبدِ ثلاثمئةُ مليارِ خليةٍ ، يمكن أن تُجَدَّدَ كلياً خلالَ أربعةِ أشهرٍ ، ووظائفُ الكبدِ كثيرةٌ ، وخطيرةٌ ، ومدهشةٌ ، حيث لا يستطيعُ الإنسانُ أنْ يعيشَ بلا كبدٍ أكثرَ من ثلاثِ ساعاتٍ .

إنّ في جدارِ المعدةِ مليارَ خليةٍ تفرزُ من حمضِ كلورِ الماءِ ما يزيدُ على عدةِ لتراتٍ في اليومِ الواحدِ وقد جهدَ العلماءُ في حلِّ هذا اللغزِ ، لمَ لا تهضمُ المعدةُ نفسهَا ؟ أليستِ المعدةُ معجزةً ؟!.

وفي الأمعاءِ ثلاثةُ آلافٍ وستمئة زغابةٍ معويةٍ للامتصاصِ في كل سنتمترٍ مربعٍ ، وهذه الزغاباتُ تتجدّدُ كلياً كلَّ ثمانٍ وأربعين ساعةً .

وفي الكليتين مليونا وحدةِ تصفيةٍ ، طولهُا مجتمعةً مئةُ كيلو مترٍ ، يمرُّ فيها الدمُ في اليومِ الواحدِ خمسَ مراتٍ .

وتحتَ سطحِ الجلدِ خمسةَ عشرَ مليونَ مكيِّفٍ لحرارةِ البدنِ ، وهي الغددُ العرقيةُ ، لكلّ غدّةٍ عرقيةٍ مكيِّفٌ لتكييفِ حرارتِه ، وتعديلِ رطوبتِه .

إن جسمَنا الذي نحنُ نعيشُ معه أقربُ شيءٍ إلينا ، هذه حقائقُ مسلَّمٌ بها ، عَرَفَها الأطّباءُ من عشراتِ السنينِ ، وليست خاضعةً للمناقشةِ إطلاقاً ، قال تعالى :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

[الذاريات : الآية 21].

العينُ نموذجاً :



يقولُ اللهُ سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[النحل : الآية 78].

وقال:

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

[السجدة : الآية 9].

وقال عزوجل :

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

[الملك : الآية 23].

وقال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ .

[البلد : الآية 8] .

هل فكّرتمُ كيف ترونَ بهذه العَينِ الصغيرةِ الأشياءَ بِحَجمِها الحقيقيِّ ؟ فإنّ أعظمَ آلةٍ للتصويرِ تعطيكَ صورةً لا تزيدُ على مساحةِ الكفّ ! كيف ترى الجبلَ جبلاً ، والبحرَ بحرًا ، والشّمسَ شمسًا ؟ كيف ترى الأشياءَ بحجمِها الحقيقيِّ ؟ هذا السؤالُ لا يستطيعُ أيُّ عالِمٍ أن يُجيبُ عنه حتى الآنَ .

شيءٌ آخرُ ؛ لو أنّنا درَّجْنا اللّوْنَ الأخضرَ مثلاً ، أو أيَّ لونٍ آخرَ إلى ثمانمئةِ ألفِ درجةٍ ، فإنّ العينَ السليمةَ تستطيعُ أن تفرّقَ بين درجَتَين من هذه الدرجاتِ التي تزيدُ على ثمانمئةِ ألفٍ ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ .

[البلد : الآية 8] .



شيءٌ آخرُ ، كيف أنّ هذه العينَ تستطيعُ أنْ ترى البُعْدَ الثالثَ ؟ وهو العمقُ ، ترى الطولَ والعرضَ ، والعمقَ ، لو جعلَ اللهُ لنا عينًا واحدةً لرَأَيْنا بها الأشياءَ مسطّحةً ، لا مجسَّمةً بأبعادِها الثلاثةِ ، لذلك فالمسافاتُ التي أمامنا لا ندركها إلاّ بالعينين معًا ، أمّا المسافاتُ التي تعترض العينَ فتُدرَكُ بعينٍ واحدةٍ .

شيءٌ رابعٌ ، كيف أنّ هذه الصورةَ إذَا وقعَتْ على الشبكيّةِ تنطبعُ عليها ، وتنتقلُ إلى الدّماغِ في أقلَّ من جزءٍ من خمسينَ جزءًا من الثانيةِ ، ففي كلّ ثانيةٍ واحدةٍ تستطيعُ العينُ نقْلَ خمسينَ صورةً إلى الدّماغِ ، الذي يُدركُ المُرادَ منها ، فمتى يتمُّ التحميضُ وإظهارُ الصورةِ ؟

شيءٌ آخرُ ، وهو أنّ العينَ السليمةَ تستطيعُ أنْ ترى خطَّين بينهما واحدٌ على عشرينَ ميليمتراً ، وفي العينِ أشياءُ وأشياءُ لا يحتملُ هذا المقالُ استيفاءَها ، فمثلاً في الشبكيّةِ التي لا تزيدُ مساحتها على ميليمتراتٍ ، مئةٌ وثلاثون مليونَ عصيّةٍ من أجلِ الأبيضِ والأسودِ ، وسبعةُ ملايين مخروطٍ من أجلِ الألوانِ والتفاصيلِ ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ .

[البلد : الآية 8 – 9].

إنّ في العَينِ قرنيّةً شفّافةً شفافيةً تامّةً ، فلو غُذّيَتْ هذه القرنيّةُ الشفافةُ عن طريقِ الشُّعَيْراتِ كما هي الحالُ في أيّ نسيجٍ آخرَ في الجسمِ لكانتِ الرؤيةُ مُشوّشةً ، ولرأينا شبكةً فوقَ العينِ ، ولكنَّ القرنيّةَ وحدها تتغذّى عن طريقِ الحلولِ ، أي إنّ الخليّةَ الخارجيّةَ تأخذُ غذاءَها وغذاءَ جارتها من أجلِ أنْ تبقى الرؤيةُ سليمةً ، وشفّافةً ، وواضحةً .

والقزحيّةُ ، هذه الحدقةُ الملوّنةُ التي تتَّسعُ ، وتنقبضُ ، تتّسعُ إذا قلَّ النورُ ، وتنقبضُ إذا اشتدَّ النورُ على نحوٍ آليٍّ ، إنّها تتّسعُ وتنقبضُ دونَ أن تعلمَ ، والدليلُ على ذلك أنّك إذا دخلْتَ فجأةً من مكانٍ مضيءٍ إلى مكانٍ أقلَّ إضاءةً لم ترَ شيئًا إلاّ أنْ



تتّسعَ هذه القزحيّةُ على نحوٍ لا إراديٍّ ، حيث يقوم جسمٌ بلّوريٌّ بعملٍ لا يستطيعُ أن يقومَ به أكبرُ العلماءِ ، إنه ينضغطُ ، ويتقلّصُ ، ويتمدّدُ ، حيث يعلو والسائل الزجاجي له ضغوطٌ معيَّنةٌ .

2 ــ الكونُ :

يقولُ الحقُّ جلّ وعلا ، الذي خَلَقَ السماواتِ والأرضَ بالحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .

[فصلت : الآية 53] .

والحقُّ هو القرارُ والثباتُ ، والسموُّ والعلوُّ ، ونقيضهُ الباطلُ ، وهو الزوالُ والزهوقُ ،والتردِّي والعبثُ ، سنريهم آياتنا في الآفاق ،فأين هي آياتُ اللهِ في الآفاق ؟

ورد أنّ عددَ النجومِ في السماءِ بعددِ ما في الأرضِ من مَدَرٍ وحجرٍ ، أي بعددِ ذراتِ الترابِ والحجارةِ ، فعلماء الفلك في الماضي كانوا يعدُّون النجومَ بالألوفِ ، وبعد أنِ ارتقتْ كفاءةُ مراصدهم صاروا يعدُّونها بالملايينِ ، ثم وصلوا إلى الملياراتِ ؛ أي ألوف الملايين ، أمّا اليومَ فإنهم يقدّرون عددَ النجومِ في مجرَّتنا دربِ التبانة ، من خلالِ المراصدِ العملاقةِ بثلاثينَ ملياراً ، علماً أنّ مجرَّتنَا مجرةٌ متوسطةٌ في حجمِها ، وهي واحدةٌ مِن عشراتِ ألوفِ الملايينِ من المجراتِ ، التي لا يعلم عددَها إلا اللهُ ، لقد صدق اللهُ العظيمُ إذ يقول :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ .

[ق : الآية 6] .

هذا عن عددِ النجومِ ، فماذا عن حجومِها ؟!

إنّ حجمَ الأرضِ يساوي مليونَ مليونِ كيلومتر مكعب ، وأنّ الشمسَ تكبرُ الأرضَ بمليونٍ وثلاثمئة ألفِ مرة ، وأنّ المسافةَ بينهما مئةٌ وخمسون مليونَ كيلومتر ، وأنّ نجماً من النجومِ في برجِ العقربِ يتسّعُ للأرضِ والشمسِ مع المسافةِ بينهما ،



وأن نجماً اسمه منكبُ الجوزاءِ يزيدُ حجمُه على حجمِ الشمس بمئةِ مليونِ مرة ، لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ .

[الذاريات : الآية 47].

هذا عن أعدادِها وأحجامِها ، فماذا عن المسافاتِ بينها ؟

إنّ ما بينها من مسافاتٍ تقدَّر بالسنين الضوئية ، فالضوءُ يقطعُ في الثانيةِ الواحدةِ ثلاثمئة ألف كيلومتر ، إذاً فهو يقطعُ في السنةِ عشرةَ آلاف مليارٍ من الكيلومترات ، فإذا علمنا أنّ القمرَ يبعدُ عنّا ثانيةً ضوئيةً واحدةً ، وأنّ الشمسَ تبعدُ عنا ثمانيَ دقائقَ ضوئيةٍ ، وأنّ المجموعةَ الشمسيةَ لا يزيدُ قطرُها على ثلاث عشرة ساعةً ضوئيةً ، وأنّ أقربَ نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض يبعدُ عنّا أربعَ سنواتٍ ضوئيةٍ ، ولكي نعلمَ ماذا تعني أربعُ سنواتٍ ضوئيةٍ نقول :

لو اتجّهنا إلى هذا النجمِ بمركبةٍ تساوي سرعتُها سرعةَ مركبةِ القمرِ لاستغرقتِ الرحلةُ أكثرَ من مئةِ ألف عام ، ولو ساوتْ سرعةُ هذه المركبةِ سرعةَ السيارةِ لاستغرقتِ الرحلةُ هذه قريباً من خمسين مليونَ عام !!. هذا ما تعنيه أربعُ سنواتٍ ضوئيةٍ !!.

فما القولُ في سديمِ المرأةِ المسلسلةِ ، التي تبعدُ عنّا مليونَيْ سنةٍ ضوئيةٍ ؟ بل ما القولُ في مجرةٍ اكتشفتْ حديثاً ، تبعدُ عنا عشرينَ ألفَ مليون من السنواتِ الضوئيةِ ؟ لقد صدق الله العظيمُ إذ يقول :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ .

[الواقعة : الآية 75 – 76] .



هذا ولم نتحدّثْ عن حركاتِ النجومِ ، وسرعتها العاليةِ ، ولا عن مداراتها الواسعةِ ، ولا عن شدّتها ، ولا قوّةِ إضاءتها ، ولا عن قوى التجاذبِ التي تربطُها ، ولا عن توازنها الحركيِّ ، وعلى كلٍّ فالعجزُ عن الإدراكِ إدراكٌ .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

[الزمر : الآية 67].

3 ـ البعوضةُ نموذجاً :

مِن آياتِ اللهِ الدالةِّ على عظمتهِ قولهُ تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ .

[البقرة : الآية 26] .

إذا وقفَتْ بعوضةٌ على يدك قتلتها ، ولم تشعرْ بشيءٍ ، وكأنّ شيئًا لمْ يحدُثْ ، لهَوَانِها عليك ، حتى إنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال : ((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)) .

[الترمذي (2320) ، ابن ماجه (4110) عن سهل بن سعد] .

إنّ في رأسِ البعوضة مئةَ عينٍ ، ولو كُبِّر رأسُ البعوضةِ بالمِجْهَرِ الإلكترونيِّ لرأينا عيونَها المئةَ على شكلِ خليةِ النحلِ ، وفي صدرِ البعوضة ثلاثةُ قلوبٍ ، قلبٌ مركزيٌّ ، وقلبٌ لكلِّ جناحٍ .

وهي تملك جهازًا لا تملكه الطائراتُ الحديثةُ ، إنه جهاز (رادار) ، أو مستقبلاتٌ حراريَّةٌ ، بمعنى أن البعوضةَ لا ترى الأشياءَ بأشكالِها وألوانِها ، بل



بحرارتِها ، فلو أنّ بعوضةً وُجِدَتْ في غرفةٍ مظلمةٍ لا ترى فيها إلا الإنسانَ النائمَ ، لأن حرارتَه تزيدُ على واحدٍ من الألْفِ من درجة الحرارةِ المئويةِ .

والبعوضةُ تملك جهازًا لتحليل الدمِ ، فما كل دمٍ يناسبها ، فقد ينامُ طفلانِ على سريرٍ واحدٍ ، وفي الصباحِ تجد جبينَ أحدِهما مليئًا بلسعاتِ البعوضِ ، أمّا الثاني فلا تجد أثراً للسعِ البعوض فيه .

والبعوضةُ تملكُ جهازًا للتخديرِ ، فلو غرستْ خرطومَها فـي جلد النائم لقتَلَها ، ولكنها تخدِّرُ موضعَ لسْعِها ، وحينما يزولُ أثرُ المخدِّرِ يشعرُ النائمُ بألمِ اللسعِ ، في حين إنّ البعوضةَ تطيرُ في جوِّ الغرفةِ .

وتملك البعوضةُ جهازًا لتمييع الدمِ الذي تمتصُّه ، من الإنسانِ ، حتى يتيسَّرَ له المرورُ عبْرَ خرطومِها الدقيق .

وللبعوضةِ خرطومٌ ، فيه ستّ سكاكين ، أربع سكاكينَ تُحدِثُ في جلدِ الملدوغ جرحاً مربَّعًا ، ولابد من أن يصلَ الجرحُ إلى وعاءٍ دمويٍّ ، والسكِّينتانِ الخامسةُ والسادسةُ تلتقيان لتشكِّلاَ أنبوبًا لامتصاصِ دمِ الملدوغِ .

ويرِفُّ جناحَا البعوضةِ عددًا كبيرًا من المرَّاتِ في الثانيةِ الواحدة ، حيث يصلُ هذا الرفيفُ إلى درجةِ الطنينِ .

وفي أرجُلِ البعوضةِ مخالبُ إذَا أرادتْ أنْ تقفَ على سطحٍ خشنٍ ، ولها محاجمُ إذا أرادتْ أن تقفَ على سطحٍ أمْلسَ .

وتستطيعُ البعوضةُ أنْ تشمَّ رائحةَ عرقِ الإنسان من مسافةِ ستينَ كيلومترًا .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ .

[البقرة : الآية 26] .



قال ابن القيم رحمه الله : " قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، الآية ، وهذا جوابُ اعتراضٍ اعترضَ به الكفارُ على القرآنِ ، وقالوا : إنَّ الربَّ أعظمُ من أنْ يَذكرَ الذبابَ ، والعنكبوتَ ، ونحوَها من الحيواناتِ الخَسِيسةِ ، فلو كان ما جاء به محمَّدٌ كلامَ اللهِ لم يذكرْ فيه الحيواناتِ الخسيسةَ ، فأجابهم اللهُ تعالى بأنْ قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، فإنَّ ضرْبَ الأمثالِ بالبعوضةِ فما فوقَها إذا تضمَّنَ تحقيقَ الحقِّ ، وإيضاحَه ، وإبطالَ الباطلِ وإدْحاضَه كان مِن أحسنِ الأشياءِ ، والحَسَنُ لا يُسْتَحْيَا منهُ " [2] .

إنّ البعوضةَ ليست أقلَّ شأناً مِنَ الحوتِ الأزرقِ الذي يبلغُ وزنهُ أكثرَ من مئةٍ وخمسين طناً ، ويستهلكُ وليدُه في الرضعةِ الواحدةِ ثلاثمئة كيلو ، حيث تعادِلُ ثلاثُ رضعاتٍ من الحليبِ يومياً طنًّا واحدًا ، وإذا أرادَ الحوتُ أنْ يأكلَ أكلةً متوسطةً يملأُ

[بدائع الفوائد (4/946- 947)].

بها معدتَهَ يحتاجُ إلى أربعةِ أطنانٍ من السمكِ ، وهذه وجبةٌ ليست دسمةً ، وليس خَلْقُ البعوضةِ بأقلَّ مِن خلق الحوتِ ، والدليل قوله تعالى :

﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾

[الملك : الآية 3].

وقولُه سبحانه :

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

[طه : الآية : 49 – 50] .

إنّه خلْقٌ كاملٌ ؛ بدءًا من الفيروساتِ التي لا ترى إلا بالمجاهرَ الإلكترونيةِ ، وهناك مخلوقاتٌ أدقُّ من ذلك ، وانتهاءً بالمجراتِ التي تبعدُ عنا ملياراتِ السنواتِ الضوئيةِ ، ذلكم اللهُ ربُّ العالمين ، من الذَّرَّةِ إلى المجرةِ ، نظامٌ واحدٌ ، إتقانٌ واحدٌ ،

﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

[النمل: 88]



المقوم الثاني : العقل

01 - العقل

02 - مهمة العقل

03 - مبادئ العقل

04 - بين العقل والنقل

05 - محدودية العقل



01 - العقل

قيمةُ العقلِ :

العقلُ أصلٌ في الدينِ ، والآياتُ التي تحدّثتْ عن العقلِ بشكلٍ أو بأخرَ تقتربُ من الألفِ ، إلاّ أنّ العقلَ يختلف من إنسانٍ إلى آخرَ ، لذلك نقيِّدُ العقلَ بالصريحِ ، لأنّ هناك عقلاً تبريرياً ، مرتبطاً بالأهواءِ والمصالحِ ، سيأتي ذكرُه .

هذا الجهازُ الخطيرُ الذي أودعَه اللهُ فينا يجبُ أنْ يتوافقَ مع الشرعِ مئةً بالمئةِ ، ذلك لأنّ الشرعَ من عندِ اللهِ ، والعقلُ مقياسٌ أودعه اللهُ فينا ، والفرعان إذا اتحَدا في أصلٍ واحدٍ فلا بد أنْ يتوافقا.

هل يُعقلُ أنْ يعطيَنا اللهُ مقياساً لو أعملناه في وحيِهِ وجدناه غيرَ صحيحٍ ؟ هذا مستحيلٌ ، لأنّ العقلَ من صنعِ اللهِ ، والنقلَ وحيُ اللهِ ، فلابد مِن التوافق .

الإنسانُ مخلوقٌ في دنيا محدودةٍ ، ولكنه يُعدّ لحياةٍ أبديةٍ ، فالطبعُ يقتضي أنْ تتنعّمَ في هذه الحياةِ الدنيا ، وتخسرَ الآخرةَ ، أما العقلُ فيقتضي أنْ تعملَ للآخرةِ ، وأن تتنعّمَ إلى أبد الآبدين في جنةِ الله عز وجل ، لذلك قال العلماءُ : " ما مِن إنسانٍ يعملُ للدنيا ، وينسى الآخرةَ إلاّ وهو في الحقيقةِ مجنونٌ " ، ولو كان يحملُ أعلى شهادةٍ ، فإنّ تفوّقَه العلميَّ يسمَّى ذكاءً ، ولا يسمَّى عقلاً ، ولكنْ حينما غفلَ عن الحقيقةِ الكبرى في الكونِ ، وغفلَ عن الآخرةِ ، وغفلَ عن سرّ وجودِه فهو مجنونٌ ، والآيةُ الكريمةُ :

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ .

[سورة القلم : 1 ـ 2].

يجبُ أن تؤمنَ ، وأن تعتقدَ بكلِّ ذرةٍ في كيانك أنّ هذا الذي لا يصلّي ، ولا يعرف اللهَ ، وهو غارقٌ في المعاصي والآثامِ مجنونٌ ، ولو كان يحملُ أعلى شهادةٍ ،



وأنّ هذا الذي يغتصبُ أموالَ الناسِ يتوهّم نفسهَ عاقلاً ، وفي الحقيقةِ هو أحمقُ ، لأنه سوف يُسأَلُ عن كلّ ذرّةٍ ،

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾ .

[سورة الزلزلة : 7 ـ 8] .

العقلُ جعله اللهُ للدين أصلاً وللدنيا عماداً :

فالإنسانُ العاقلُ يعيش حياةً هادئةً ، حياةً فيها سلامةٌ ، فيها سعادةٌ ، لأنه أخذ ما له ، وتركَ ما ليس له ، تحرّكَ بحجمِه ، بنَى علاقاتِهِ بوضوحٍ ، فأحبّه الناسُ ، وكسبَ مالاً حلالاً ، وأسّس أسرةً ، وربّى أولاده ، استعملَ عقلَه في الآخرةِ فكسبهَا ، واستعملَ عقلَه في الدنيا فربحَها ، يقول رسول الله ﷺ : ((مَا اكْتَسَبَ رَجُلٌ مِثْلَ فَضْلِ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى هُدًى ، وَيَرُدُّهُ عَنْ رَدًى ، وَمَا تَمَّ إِيمَانُ عَبْدٍ ، وَلاَ اسْتَقَامَ دِينُهُ حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ)) .

[البيهقي في شعب الإيمان (4660) عن عمر] .

العاقلُ يسعدُ ويُسعدُ ، أمّا ضعيفُ العقلِ فيشقى ويُشقي ، وما مِن عطاءٍ إلهيٍّ يفوقُ في قيمته كل عطاءٍ كأنْ يهبكَ اللهُ عقلاً راجحاً يُعينُك على الحياةِ بين الناسِ ، وعلى كسبِ محبتّهم .

بالعقلِ والحكمةِ يسعدُ الإنسانُ بزوجةٍ من الدرجةِ الخامسةِ ، ومن دونِ عقلٍ وحكمةٍ يشقى بزوجةٍ من الدرجةِ الأولى ، بالعقلِ والحكمةِ يعيشُ بدخلٍ محدودٍ ، ومن دونِ عقلٍ وحكمةٍ يدمّرُ نفسهَ بدخلٍ غيرِ محدودٍ .

هذا نعيمُ بن مسعودٍ أحدُ كبارِ الصحابةِ ، زعيمُ غطفانَ ، جاء على رأسِ جيشٍ ليحاربَ النبيَّ عليه الصلاة والسلامُ في معركةِ الخندق ، له قصةٌ رائعةٌ ، كان مستلقياً في خيمته ، وهو يحاصرُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام ، جرى في نفسِه حوارٌ ذاتيٌّ داخليٌّ ، وهذا الحوارُ مع الذاتِ مهمٌّ جداً ، فهذا الصحابيُّ الجليلُ يخاطبُ نفسهَ ، يقول



: ويحكَ يا نعيمُ ! ما الذي جاء بك من تلك الأماكنِ البعيدةِ في نجدٍ لحربِ هذا الرجلِ ومَن معه ؟ فأنت لا تحاربهُ انتصاراً لحقٍّ مسلوبٍ ، ولا حميةً لعرضٍ مغصوبٍ ، وإنما جئتَ لتحاربهَ لغيرِ سببٍ معروفٍ ، أيليقُ برجلٍ له عقلٌ مثلُ عقلِك أنْ يقاتلَ فيَقْتُلَ ، أو يُقْتَلُ لغيرِ سببٍ ؟ ويحكَ يا نعيم ! ما الذي يجعلُك تشهرُ سيفكَ في وجهِ هذا الرجلِ الصالحِ ؛ الذي يأمرُ أتباعَه بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى ، ويحك يا نعيمُ ! ما الذي يحملك على أنْ تغمسَ رمحَك في دماءِ أصحابهِ الذين اتبّعوا ما جاءهم به من الهدى والحقِّ .

هذه المناقشةُ كانت سببَ سعادته إلى أبد الآبدين .

أناسٌ كثيرون ماتوا على الشرك ، لا لأنهم كانوا فعلاً مشركين ، إلا أنهم كانوا ـ مع أتباعِهم هكذا ؛ لم يفكّر ، وإنما يعيشُ مع المجموعِ ، ومع التيارِ العامِّ ، فسقٌ على فسقٍ ؛ ولم يحسم هذا الحوارَ العنيفَ بين نعيمٍ ونفسهِ إلا القرارُ الحازمُ الذي نهضَ من توّه لتنفيذِه .

تسللّ نعيمُ بن مسعودٍ من معسكرِ قومِه تحت جنحِ الظلامِ ، ومضى يحثُّ الخطَى إلى النبي ﷺ ؛ فلما رآه النبي ﷺ ماثلاً بين يديه قال : نعيمُ بن مسعودٍ !! قال : نعم يا رسولَ اللهِ ؛ قال : ما الذي جاء بك في هذه الساعةِ ؟ قال : يا رسولَ اللهِ ، جئتُ لأشهدَ أن لا إلهَ إلا الله ، وأنك عبدُ الله ورسولهُ ؛ وأنّ ما جئتَ به الحقُّ ، ثم أردفَ يقول : لقد أسلمتُ يا رسولَ الله ، وإنّ قومِي لم يعلموا بإسلامي ، فمُرْني بما شئت .

النبي ﷺ في مواجهةِ عشرةِ آلافِ رجلٍ بأسلحتهم الفتّاكةِ ، واليهودُ نقضوا العهدَ ، وتحطيم الإسلامِ صارَ موضوعَ ساعات ؛ فماذا يفعلُ رجلٌ واحدٌ ؟! فقال ﷺ : إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ ، فاذهب إلى قومِك ، وخذِّلْ عنا إن استطعتَ ، فإن الحربَ خدعة .

الآن سيوظِّفُ ذكاءَه ، وعقلهَ الكبيرَ ، وسرعةَ بديهته ، وفطانتهَ ، وكلَّ أساليبه الذكيّةِ ، سيوظِّفها لصالحِ الدينِ الجديدِ ، قال : نعم يا رسولَ الله ، وسترى ما يسرُّك إن شاءَ اللهُ .



في ساعةِ تفكيرٍ ، ساعةِ إعمالٍ للعقل ، ساعةِ تأملٍ ، ساعةِ حديثٍ مع الذاتِ ، انقلبَ من رجلٍ مشركٍ يحاربُ اللهَ ورسولهَ إلى رجلٍ مؤمنٍ قلبَ موازينَ المعركةِ .

هذا الرجلُ الواحدُ استطاعَ أن يدخلَ إلى قريشٍ ، وأن يوقعَ بينها وبين الي هودِ الذين نقضوا عهدَهم مع النبي ﷺ ، قال لقريش : إنّ اليهودَ ندموا على نقضِ عهدِهم مع محمّدٍ ، الآن سيطلبون منكم رهائنَ كي لا تتخلوّا عنهم ، وسوف يقدمونهم إلى النبيِّ ليقتلهم ، وقال لليهود أن يطلبوا الرهائنَ ، فوقعَ بين قريشٍ واليهودِ الشقاقُ ، وأرسلَ اللهُ عز وجل رياحاً عاتيةً قلبت قدورَهم ، وأطفأت نيرانَهم ، واقتلعتْ خيامَهم ، وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ .

[ذكر هذه القصة بلفظها وتمامها ابن حجر في فتح الباري (402/7)]

ينبغي على المرءِ إنْ كان له عملٌ لا يرضي اللهَ ، إنْ كانت في بيته معصيةٌ ، أو زوجتهُ ليست مستقيمةً ، لم يربِّ أولادَه ، في دخله شبهةٌ ، ينبغي عليه أن يراجعَ نفسهَ ، أيليقُ بك وأنت من المسلمين أن تعصيَ اللهَ ؟ أن تفعلَ كذا وكذا ؟

ويقول ﷺ : ((لِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ ، وَدِعَامَةُ عَمَلِ الْمَرْءِ عَقْلُهُ ، فَبِقَدْرِ عَقْلِهِ تَكُونُ عِبَادَتُهُ لِرَبِّهِ)) .

[الفردوس بمأثور الخطاب (4999) عن أبي سعيد] .

أما سمعتم قولَ الفجّارِ :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾.

[الملك : الآية 10] .

أصحابُ النبيِّ ﷺ الذين آمنوا به ، ونصروه وعزّروه ، واتبعوا النورَ الذي أُنزِلَ معه ، وصدّقوه ، وحاربوا معه ، أين هم الآن ؟ في أعلى علّيّين ، ما مِن مسلمٍ من مليارٍ ومئتي مليونٍ إلا ويقولُ إذا ذُكِرَ أحدُهم : " رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ " ، لكن مَ ن منّ ا



يترضّى عن أبي جهلٍ ــ لعنه اللهُ والملائكةُ والناسُ أجمعون إلى يومِ الدين ــ هؤلاء أعداءُ الحقِّ ، لعُِنوا في الدنيا والآخرةِ ، ما استخدَموا عقولَهم ، بل خضعوا لبيئتهم ، خضعوا للتقاليدِ والعاداتِ ، وكثير من الناسِ لا يستخدمون عقولَهم ، بل يعيشون لحَظَتَهم فقط ، فأنت مع الأكثريةِ أم مع الأقليةِ ، يجب أن تكونَ مع الأقليةِ المؤمنةِ ، مع الأقليةِ العاقلةِ ، مع الأقليةِ المفكِّرةِ .

سيدُنا عليٌّ رضي الله عنه قال : " يا بنيّ ، الناسُ ثلاثةٌ ؛ عالِمٌ ربانيّ ، ومتعلمٌ على سبيلِ نجاةٍ ، وهَمَجٌ رُعاعٌ أتباعُ كلّ ناعقٍ ، لم يستضيئوا بنورِ العلمِ ، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيقٍ ، فاحذرْ يا كميلُ أن تكونَ منهم " .

يقولُ سيدنا عمرُ رضي الله عنه : " أصلُ الرجلِ عقلُه ، وحسَبُه دينُه ، ومروءتهُ خُلُقُه " .

ويقول الحسنُ البصري : " ما استودعَ اللهُ أحداً عقلاً إلا استنقذَه به يوماً ما " .

وقال بعضُ الأدباء : " صديقُ كل امرئٍ عقلُه ، وعدوُّه جهلُه ، لا أرى عدوًّا أعدى من الجهلِ " ، قد يكونُ لنا أعداءٌ ، ولكنّ أشدَّ عداوة لنا منهم جهلُنا ، لأن الجاهلَ يفعلُ في نفسِهِ ما لا يستطيعُ عدوُّه أن يفعلَه به " .

لذلك فإنّ صديقَ كل امرئٍ عقلُه ، وعدوَّه جهلُه .

وقال بعضُ البلغاءِ : " خيرُ المواهبِ العقلُ ، وشرُّ المصائبِ الجهلُ " .

وقال بعضُ الشعراءِ :

يزينُ الفتى في الناسِ صحةُ عقلِهِ	و إنْ كان محظوراً عليه مكاسبهُ
يشينُ الفتى في الناس قلةٌ عقلِه	و إنْ كرُمتْ أعراقُهُ ومناسبُه
يعيشُ الفتى بالعقلِ في الناس إنه	على العقلِ يجري علمُه و تجاربِهُ
و أفضلُ قسمِ اللهِ للمرءِ عقلُه	فليس لأشياء شيءٌ يقاربُه
إذا أكمل الرحمنُ للمرءَ عقلَه	فقد كمُلتْ أخلاقُهُ ومآربُه



02 - مهمة العقل

إنّ أعقدَ شيءٍ في الكونِ على الإطلاقِ دماغُ الإنسانِ ، فهو عاجزٌ عن فهمِ نفسِه ، وأكبرُ جهازِ حاسوبٍ في الأرضِ لا يرقى إلى واحدٍ بالمليارِ من طاقاتِ الدماغِ البشريّ ، هذا الفكرُ الذي أودعه اللهُ فينا ، وهذا الجهازُ الاستشاريُّ الذي وُضِعَ تحت تصرّفِنا لماذا خَلَقَه اللهُ لنا ؟ خَلَقَه اللهُ لنا كي نعرفَه به ، فاستخدمناه لهدفٍ صغيرٍ ، كأن تشتريَ حاسوباً خصيصَى لتحليلِ الدمِ ، ثم تستخدمُه كطاولةٍ في البيت ؟ أيفعلها عاقلٌ ؟ حينما تستخدمُه كطاولةٍ فقد احتقرتَه ، وعطّلتَ كلَّ ميزاته ، أما إذا استخدمتَه في مخبرِ تحليلٍ تربحُ به أموالاً كثيرةً .

إنّ اللهَ سبحانه وتعالى أعطانا فكراً من أجلِ أنْ نعرفَه ، فإنْ عرفناه أطعناه ، فسلِمْنا ، وسعِدنا في الدنيا والآخرة ، والمشكلةُ أنّ الإنسانَ يستخدمُ ذكاءَه وفكْرَه من أجلِ كسبِ المالِ فقط ، أو من أجلِ تثبيتِ مركزِه في مكانٍ أو آخرَ ، أو من أجلِ أنْ يصلَ إلى أكبرِ جاهٍ من الدنيا بأقلِّ جهدِ ، لكنّ الإنسانَ حينما يستخدمُ ذكاءَه وفكرَه لغيرِ ما خُلِق له يندمُ يومَ القيامةِ أشدَّ الندمِ ، هل يُعقَل أنْ تكونَ معك ورقةٌ ماليةٌ قيمتُها ألف مليون ليرة ، ثم تستخدمُها كأيّ ورقةٍ عاديةٍ في عمليةٍ حسابيةٍ ، ثم تتلفُها ، ثم تكتشفُ أنّ هذه الورقةَ كانت ستغنيك إلى نهايةِ العمرِ ، وتغني كلَّ أفرادِ أُسرتك ؟ هذا الذي يحصل مع الإنسانِ حين يستخدمُ عقلَه لغيرِ ما خُلِق له .

العقلُ الفطريُّ :

هناك عقلٌ غريزيٌّ ، وعقلٌ كسبيٌّ ، فالأولُ هو العقلُ الطبيعيّ الفطريّ ، والعقلُ الثاني شَحْنَ معلوماتٍ ، والإنسانُ محاسبٌ على عقلِهِ ، وعلى فطرتِهِ ، هذا العقلُ كافٍ كي تعرفَ اللهَ ، وهذه الفطرةُ كافيةٌ كي تعرفَ خطأَك ، فكلُّ إنسانٍ لم تصلْ ه رسالةٌ يحاسَبَ على أصولِ الدِّينِ التي يمكنُ أنْ يعرفهَا العقلُ ، وعلى أصولِ فطرتِهِ التي يمكن أنْ تكشفَ خطأَه ، أمّا تفاصيلُ الدِّين فلا يحاسَبُ عليها .



أمّا الشيءُ الدقيقُ فهو أنّ اللهَ سبحانه تولّى هدايةَ الخَلق ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾

[الليل : 12].

وقال :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾

[النحل : الآية 9].

أيْ : وعلى اللهِ بيانُ سبيلِ القصدِ ، وقال :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

[الأنفال : الآية 23] .

اللهُ عز وجل يتولّى الناسَ كلَّهم بالهدايةِ ، والإنسانُ محاسَبٌ على ما أودعَ اللهُ فيه من عقلٍ يعرّفهُباللهِ ، ومن فطرةٍ تعرّفه بخطئه ،وقد فسَّرَ بعضُ العلماءِ قولَ اللهِ تعالى :

﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾

[يس : من الآية 70] .

أي : مَن كان عاقلاً .



03 - مبادئ العقل

العقلُ هو الجهازُ الذي يتعرّف إلى المحيطِ الخارجيِّ ، وهذا الجهازُ لا يفهمُ الشيءَ إلا بسببٍ ، ولا يفهمُ الشيءَ إلا بغايةٍ ، ولا يفهمُ الشيءَ إذا كان متناقضاً ، وهذه مبادئُ العقلِ الثلاثةُ ، (مبدأُ السببيّةِ – والغائيةُ – وعدمُ التناقضِ) ، فللهُ عز وجل خ َ لقَ الأسبابَ ، وأودعَ فينا عقلاً لا يفهمُ الأشياءَ إلا بأسبابِها وغاياتِها ، ولا يقبلُ التناقضَ .

لو أنّ متهَّماً أثبتَ أنه كان في وقتِ وقوعِ الجريمةِ في مكانٍ بعيد عنها ، فإنه تثبتُ براءتهُ ، لأنّ القاضي عنده عقلٌ ، والإنسانُ لا يكونُ في مكانينِ في آنٍ واحدٍ ، فك لُّ واحدٍ منّا يستخدمُ عقلَه في اليومِ آلافَ المراتِ ، فالصوتُ يدلُّ الإنسانَ على حركةٍ ، والرائحةُ تدلُّه على الحريقِ مثلاً ، فالعقلُ لا يكشفُ الحقيقةَ إلا بأسبابٍ ماديّةٍ ـــــ ، هذه هي العمليةُ الوحيدةُ للعقلِ ، وهي الاستدلالُ ، فينتقلُ من محسوسٍ إلى مجرّدٍ ، أمّا أمورُ الآخرةِ ، أمورُ الجنةِ والنارِ ، والجنِّ والملائكةِ ، الماضي السحيقِ ، المستقبلِ البعيدِ ، هذه لا دَخْلَ للعقلِ بها إطلاقاً ، عندنا يقينٌ حسيٌّ ، ويقينٌ استدلاليٌّ عقلِ يٌّ ، ويقينٌ إخباريٌّ ، فالحيوانُ يتعاملُ مع المحيطِ بالحواسِّ فقط ، والإنسانُ عامّةً فيتعاملُ مع المحيطِ بالحواسِّ والعقلِ ، أمّا المؤمنُ فيتعاملُ بالحواسِّ والعقلِ والخبرِ الصادقِ ، فعندنا حقيقةٌ حسيّةٌ ، وحقيقةٌ عقليّةٌ ، وحقيقةٌ إخباريّةٌ ، وكلُّ حقيقةٍ لها طريقٌ ، ولها دليلٌ ، ولها برهانٌ ، فبرهانُ القضايا الحسيّةِ اللمسُ ، والشمُّ والصوتُ ، والصورةُ ، وما إلى ذلك ، وبرهانُ القضايا العقليةِ الاستدلالُ ، أمّا برهانُ القضايا الغيبيةِ فالخبرُ ، فأنت تؤمنُ بالآخرةِ عن طريقِ الخبرِ الصحيح ، وتؤمنُ بوجودِ الله عن طريقِ العقلِ ، كما تؤمنُ بالشمسِ عن طريقِ العينِ ، وسيأتي تفصيلُ ذلك في مبحثِ التشريعِ .

اللذّاتُ الحسيّةُ واللذّاتُ العقليّةُ :

الإنسانُ له حواسٌّ ، وله عقلٌ ، وهناك لذّاتٌ حسيّةٌ ولذّاتٌ عقليّةٌ ، فلو أنّ الإنسانَ في رمضانَ تركَ الطعامَ والشرابَ يجوعُ ويعطشُ حسيّاً، ويتمنّى أنْ يأكلَ ويشربَ ، لكنه يشعرُ بلذّةٍ عقليّةٍ ، لأنه مطيعٌ للهِ عز وجل .



إنفاقُ المالِ فيه خسارةٌ ماديّةٌ ، لكنْ معه لذّةٌ عقليةٌ ، فكلما ارتقى الإنسانُ بحَثَ عن لذّةٍ عقليةٍ ، وكلما هبطَ مستواه بحثَ عن لذّةٍ حسيةٍ ، لك أنْ تملأَ عينيك مِن امرأةٍ حسناءَ ، مثلاً ، هذه لذّةٌ حسيةٌ ، ولك أنْ تغضَّ البصرَ عنها ، هذه لذّةٌ عقليةٌ .

انظرْ إلى المجاهدِ في سبيلِ اللهِ ، روحُه على كفهِّ ، لكنّه يشعرُ بلذَّةٍ كبيرةٍ ، لأنه باعَ نفسهَ للهِ عزّ وجلّ .

الإنسانُ العاقلُ يتعاملُ مع البيانِ ، وغيرُ العاقلِ يتعاملُ مع الواقعِ :

لو أنك سافرتَ في الشتاءِ إلى مدينةٍ ما ، وفوجِئْتَ في بدايةِ الطريقِ الموصلِ إلى تلك المدينةِ بلوحةٍ كُتبَ عليها : " الطريقُ مُغْلَقٌ بسببِ تراكمِ الثلوجِ " ، لا شكَّ أنك تلغِي سفرَك ، وتعودُ فوراً ، مع أنّ الطريقَ ما زال سالكاً ، ولا يوجدُ أثرٌ للثلجِ ، لكن لو أنّ دابةً تمشي في الطريق نفسِه فلا شكَّ أنها ستقفُ عند الثلجِ ، انظرْ إلى تعاملِ الإنسانِ مع البيانِ ، وإلى تعاملِ الدابةِّ مع الواقعِ .

متى يقلعُ المدخِّنُ عن التدخينِ ؟ عند وقوعِ سرطانِ الرئةِ ، أمّا إذا كان يملكُ عقلاً راجحاً فإنه يقلعُ عن التدخينِ وهو صحيحٌ معافىً ، لأنه سمعَ عن مضارِّ التدخينِ فتعاملَ مع البيانِ

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[القصص : من الآية 60] .

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[الجاثية : من الآية 23] .

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

[سورة الذاريات : 21].

﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

[آل عمران : 143] .



جاء في الحديثِ الشريفِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ : ((قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَعْقِلُهَا وَأَتوَكَّلُ ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ ؟ قَالَ : اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ))

[الترمذي (2517)]

ما معنى : عقلتُ ؟ يعني ربطتُ ، ما معنى : هذا إنسانٌ عاقلٌ ؟ أي : عنده موانعُ ضدّ الأعمالِ السيئةِ ، يمنعُه عقلُه أنْ يأكلَ مالاً حراماً ، يمنعُه عقلُه أنْ يزنيَ ، يمنعُه عقلُ ه أنْ يعتديَ على أموالِ الناسِ ، يمنعُه عقلُه أنْ يتكلّمَ كلاماً بذيئاً ، فالعقلُ لجامٌ ، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:((الْإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ)) .

[أبو داود (2769) ، أحمد (1426)].

بشكلٍ عامٍّ ، الإنسانُ له حركةٌ يوميةٌ ، يخرجُ من بيتهِ ، تعترضُ طريقَ ه فتاةٌ ، بإمكانهِ أنْ ينظرَ إليها ، أو أنْ يغضَّ بصرَه عنها ، يصلُ إلى عملِه ، بإمكانهِ أنْ يكذبَ ، أو أن يكونَ صادقاً ، فإذا استخدمَ عقلَه الصريحَ اختار غضَّ البصرِ ، واختار الصدقَ ، وآثرَ مرضاةَ اللهِ .

04 - بين العقل والنقل

مَن ردَّ خبرَ اللهِ في القرآنِ أو في السنّةِ ، أو كذّبَ بشيءٍ من الغيبِ الذي قصَّ ه عليه لأنه لم يرْقَ لعقلِه ، ولم يفهمْ ه فهذا هو الكفرُ ، وكذلك مَن ردَّ أمْرَ اللهِ سبحانه وتعالى ، وأبىَ أنْ يطيعَه استكباراً وعناداً فقد كفر .

هل يُقبَل من مُمَرِّضٍ ناشئٍ أنْ يعترضَ على أكبرِ جرّاحٍ ، أو أن يقدِّمَ حلولاً له ؟ ، هل يُقبلُ من جنديٍّ غرٍّ أنْ يقترحَ على رئيسِ الأركانِ ؟ هذا في دنيا الناسِ لا يُقبلُ أبداً .



مَن صدّقَ نظريةَ داروين فقد كفرَ ، من صدّق شيئاً خلافَ الوحيِ فقد كفرَ ، مَن لم يطِع استكباراً فقد كفرَ ، والمعصيةُ الأولى التي عصى إبليسُ بها ربهَّ كانت مِن النوعِ الثاني ، يعني أنها ردُّ الأمرِ ، فإنّ اللهَ قد أَمَرَه بالسجودِ لآدم فقال :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ .

[الإسراء : الآية 61].

ولم يكن إبليسُ ــ لعنه اللهُ ــ مكذِّباً بشيءٍ من أخبارِ اللهِ ، وإنما انحصرتْ معصيتهُ في ردِّ الأمرِ الإلهيِّ كِبراً وعلوًّا عندما ظنّ أنّ هذا الأمرَ يخالفُ الحكمةَ ، إذْ زعمَ أنّ الفاضلَ لا يسجدُ للمفضولِ ، وإذْ رأى نفسهَ ــ وقد خُلِقَ من النارِ ــ أفضلَ من آدمَ الذي خُلِقَ من طينٍ ، وقياسُ إبليسَ قياسٌ فاسدٌ .

كم مِن مسلمٍ يقولُ لك : هذا غيرُ معقولٍ ، تأتيه بآية قرآنية :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾

[النور : من الآية 30] .

فيقولُ لك : هذه الآيةُ ليست لهذا العصرِ ، أين أذهب بعيني ؟ هذا الذي يردُّ أمْرَ اللهِ استكباراً أو علوًّا فقد كفرَ ، ولمّا أصرَّ إبليسُ على معصيةِ اللهِ كان جزاؤُه أنْ لعنَهَ اللهُ أبداً ، وطردَه من رحمتهِ سرمداً .

وأمّا المعصيةُ الثانيةُ التي عُصِيَ بها اللهُ فقد وقعت من آدمَ عليه السلامُ ، ولمّا لمْ تكن عناداً ، وإنما كانت ضعفاً ونسياناً فقد عفا اللهُ عنها :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ .

[طه : الآية 115].



ثم إنّ آدمَ لمْ يصرّ عليها ، بل سارعَ إلى الفرارِ منها والاعتذارِ عنها ،قال تعالى :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾

[الأعراف : الآية 22- 23].

وشتانَ بين المعصيتين ، معصيةِ الكِبْرِ والعنادِ والاستعلاءِ ، ومعصيةِ الغلبةِ والضعفِ ، فلمّا اعترفَ آدمُ وزوجُه بالخطيئةِ ، فسارعَا إلى التوبةِ والإنابةِ فإنّ اللهَ سبحانه قَبِلَ عذْرَه ، وأقالَ عَثْرَته ، وهذان درسانِ بليغانِ لبني آدمَ ، فأَلْفُ معصيةٍ من نوعِ الضعفِ أهونُ ألفَ مرّةٍ من معصيةٍ واحدةٍ من نوعِ الكبرِ والردِّ ، والعبوديةُ لله إنّما هي في طاعةِ أمْرِه أيّاً كان هذا الأمرُ صغيرًا أو كبيرًا فيما يوافقُ معقولَ المأمورِ أو يخالفُه .

إنّ اللهَ سبحانه وتعالى هو أعلمُ بمَا يأمرُ به ، وينهى عنه ، والعبدُ لا يكونُ عبداً على الحقيقةِ إلاّ إذا أطاعَ معبودَه من دونِ تردّدٍ أو توقُّفٍ ، أو نظرٍ أو سؤالٍ : لمَ أَمَرَ بكذا ، ولمَ نهَى عن كذا ؟ ولو كان العبدُ لا يطيعُ إلاّ فيما عَقَلَ ، وفهِمَ لكانت طاعتُه لمعقولِه ومفهومِه ، وليست لخالقِه وإلهِه ومولاه ، ولم يكن عبداً لله ، بل هو عبدٌ لذَاتِهِ ، هذا الذي لا يقبلُ أمراً إلا بعدَ أنْ يفهمَه ، ويرى حكمتَه ، وأنه لصالحِه ، هذا ليس عبداً لله ، إنّما هو عبدٌ لذَاتِهِ ، وعبدٌ لسلامتِهِ ، وعبدٌ لمصالحِه .

الإنسانُ يطيعُ قلبَه وعقلَه في أشقِّ الأمورِ ، قد يقولُ له طبيبٌ : لابد مِن عملٍ جراحيٍّ فوراً ، لابد مِن شقِّ الصدرِ ، وإجراءِ عمليةٍ في صمامِ القلبِ ، فلا يتأخّرُ ثانيةً ، ويتحمّلُ أشدَّ الأخطارِ ، ويدفعُ باهظَ التكاليفِ ، لأن عقلَه اقتنعَ أنّ هذه العمليةَ لمصلحتِهِ ، هل هو يعبدُ اللهَ في هذا ؟

الإنسانُ يطيعُ قلبَه وعقلَه في أشقِّ الأمورِ على نفسِهِ وبدنِهِ ، بل قد يركبُ الصعبَ والذلولَ في تنفيذِ ما يأمرُه به عقلُهُ أو قلبُهُ أو هواهُ ، ألا يستحقُّ اللهَ أنْ تعبدَه



من دونِ تردّدٍ ، من دونِ أنْ تسألَ عن الحكمةِ ، من دونِ أنْ تتفلسفَ عليه ، من دونِ أن تطالِبَ بالدليلِ والحكمةِ ؟ ولو كانت طاعةُ اللهِ تابعةً لسلطانِ العقلِ والقلبِ والهوى لكان القلبُ والعقلُ والهوى معبودَك الحقَّ ، وليس اللهَ سبحانه وتعالى .

إنّ الدينَ قائمٌ على مخالفةِ ما تهواه النفوسُ ، وما يخالفُ رأيَ الإنسانِ ومعقولَ ه أحياناً ، وهذا هو معنى التعبدِ للهِ ؛ أن تطيعَ اللهَ ولو لم تفقهْ هذا الأمرَ ، لو لم تدركْ حكمةَ هذا الأمرِ ، أمرُ اللهِ ممزٌ ، علةُّ أيِّ أمرٍ عندَ المؤمنِ الصادقِ أنهّ أمْرٌ .

جرى نقاشٌ بين عالِمين ، عالمٍ عرفَ اللهَ ، وأسلمَ حديثاً ، وكلُّ خليةٍ في جسمِ ه تعبدُ اللهَ ، وعالمٍ آخرَ يحاولُ أنْ يقنعَه أنّ لحمَ الخنزيرِ حرامٌ ، وأتاه بمئة دليلٍ ودليلٍ ، وقال له الأولُ : كان يكفيك أنْ تقولَ لي : إنّ اللهَ حرَّمه .

ألا يستحقُّ اللهُ العظيمُ خالقُ السماواتِ والأرضِ أنْ تنصاعَ لأمرِه من دونِ تردّدٍ ، ومِن دونِ سؤالٍ عن الحكمةِ ؟!

هذا الكلامُ نظريٌّ ، وإليكم التطبيقُ العمليَّ ، إبراهيمُ عليه السلامُ هو المثالُ والقدوةُ والأسوةُ في المسارعةِ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ سبحانه وتعالى ، جعلَ ه اللهُ إماماً للناسِ جميعاً ، وجعلَ النبوّةَ في ذريتِهِ دونَ سائرِ البشرِ ، ولم يصلْ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلامُ إلى ما وصلَ إليه مِن إمامةِ الدينِ إلا أنه أُمِرَ بأوامرَ إلهيةٍ تخالفُ المعقولَ فنفذّها.

﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ .

[البقرة : من الآية 124].

وكان ممّا أُمِرَ به ممّا يخالفُ معقولَ البشرِ أنْ يلقيَ زوجتَه هاجرَ وابنَها إسماعيلَ في أرضٍ مقفرةٍ موحشةٍ لا أنيسَ فيها ولا شيءَ ، وهي أرضُ مكةَّ ، وليس معهم أحدٌ على الإطلاقِ ، وليس لهم زادٌ إلا جرابُ تمرٍ وقربةُ ماءٍ ، ثم كرَّ راجعاً إلى بلادِ الشامِ ، هذا أمرٌ إلهيّ لإبراهيمَ يخالفُ معقولَ البشرِ ، فإن أحداً لو فعلَ هذا من عندِ نفسِهِ لكان فعْلُهُ جريمةً يحاسَب عليها ، وكذلك أمَرَه اللهُ سبحانه وتعالى ثانيةً أنْ يقتلَ ابنَهُ البكرَ إسماعيلَ عليه السلام بعد أن شبَّ وبلغَ مبلغَ الرجالِ ،



قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾

[الصافات : الآية 103] .

فسارعَ إلى تنفيذِ الأمرِ من دونِ تلكؤٍ أو نظرٍ أو تسويفٍ ، ولو أنّ إنساناً عمدَ إلى أنْ يقتلَ ابنَهَ من دونِ أمرٍ من اللهِ لكان هذا جريمةً يحاسَبُ عليها .

هل من المعقولِ أنْ تدَعَ زوجتكَ وابنكَ في أرضٍ مقفرةٍ لا ماءَ فيها ولا نباتَ ؟

قال تعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ .

[إبراهيم الآية : 37].

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ((أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا ، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ، فَقَالَتْ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : أَاللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا...)) .

مَن عنده هذا التوكلُ ؟ موتٌ محقَّقٌ ، أرضٌ في منطقةٍ حارّةٍ ، لا ماءَ فيها ولا نباتَ ، ترك زوجتَه أقربَ الناسِ إليه ، وابنَه الحبيبَ ، ورجع وحْده .

((... فَقَالَتْ لَهُ : أَاللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا ، ثُمَّ رَجَعَتْ ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيث لا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... حَتَّى بَلَغَ يَشْكُرُونَ ....))[3] .

[(3) البخاري (3184) ، أحمد (3250)].



بعد أنْ نفدَ الماءُ ، وبكى الصبيُّ ، وسعَتْ الأمُّ بين الصفا والمروةِ جاءها مَلَكٌ كريمٍ ، وفجَّرَ ينبوعَ زمزمَ .

إذا كانت الشريعةُ المنزّلةُ على سيدنا محمد ﷺ في عمومِها مما يوافقُ معقولَ أهلِ العقلِ والحجّةِ والحكمةِ ، إلاّ أنّ الجانبَ التعبديّ فيها كبير جداً ، فالأمرُ التعبديّ كلما وضحتْ حكمتهُ ضعفَ فيه ثوابُ التعبدِ ، وكلما غابتْ حكمتهُ عنا ارتفعَ فيه ثوابُ التعبدِ ، إنك إن طبّقتَ أمرَ اللهِ من دونِ أن تفهمَ الحكمةَ فلك عند اللهِ مرتبةٌ عاليةٌ .

إن مواقيتَ الصلاةِ تعبديّةٌ ، وعددَ الركعاتِ تعبديٌّ ، وهيئاتِ الصلاةِ تعبديّةٌ ، وكونَ الزكاةِ في بعضِ الأموالِ تعبديٌّ ، وتقديرَ النصابِ تعبديٌّ ، وصفةَ الصومِ ، وأعمالَ الحجِّ من طوافٍ وسعيٍ وتقبيلٍ للحجرِ ، والوقوفِ بعرفةَ ، والمبيتَ بمزدلفةَ ، ورميَ الجمارِ ، كلُّ هذه أمورٌ تعبديّةٌ .

بشكلٍ حياتيّ ، أبٌ عظيمٌ مَنحَ ابنهَ كلَّ شيءٍ ، علّمَه ، وهذّبه ، وربلّهّ ، وزوّجه ، وأمدّه بمالٍ كثيرٍ ، ألا يحقُّ لهذا الأبِ أنْ يقولَ لابنِهِ : لا تفعلْ هذا الشيءَ ، من دونِ تعليلٍ ؟ أبٌ قدّم لابنه كلَّ شيءٍ ، أكرمَه بكلِّ شيءٍ ، منحَه كلَّ شيءٍ ، والطعامُ طيّبٌ ، وأقبلَ الابنُ عليه ليأكلَ ، قال له الأب : لا تأكلْ ، هذا الأبُ المحسنُ الكريمُ ، وهو من بني البشرِ ألاَ يستحقُّ أنْ يقولَ له ابنه : يا أبتِ أنا مطيعٌ لك فيما تريدُ ، ولا أخالفُ أمْرَك ، هذا شأنُ مخلوقٍ مع مخلوقٍ .

معنى العبودية لله ليست واضحةً عند المسلمين ، وإنّ أكبر عبادةٍ لا تعدل نعمةً واحدةً أنعمَ اللهُ بها عليك ، وهي نعمةُ الإيجادِ ، قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ .

[(1) الإنسان : الآية 1].



أمدّك بكلِّ شيءٍ ، أمدّك بسمعٍ وبصرٍ ولسانٍ ونطقٍ ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ .
[البلد : الآية 8 –11].

كلّفك ما تطيقُ ، كلّفك شيئاً مريحاً ، نافعاً مفيداً ، وأنت بهذا الذي كلّفك به لا تفعلهُ ، وأنت مغمور بنعم الله .

ما أباحَه اللهُ ، وما حرّمه أيضاً أمرٌ تعبديٌّ ، أباحَ لك البيعَ ، ولو ربحتَ ألفاً بالمئةِ ، وحرّم عليك الربا ، ولو أخذتَ درهماً واحداً من الربا ، هذا حدُّ اللهِ عز وجل ، أمرَ المرأةَ ألاَ تحدَّ على غيرِ زوجِها أكثرَ من ثلاثةِ أيامٍ ، ولو كان الميتُ أعزَّ الناسِ إليها ، كابنِها ، وأبيها ، وأخيها ، وأمَرَها أنْ تحدّ على زوجِها أربعةَ أشهرٍ وعشراً ، ولو كانت لا تحبهّ ، هذا أمرُ اللهِ عز وجل ، وعليّه أنه أمرٌ يجبُ أنْ نقبلَ عليه من دونِ تردّدٍ ، من دونِ تعليقٍ على حكمتهِ ونفعِه ، وواقعيتهِ وفائدتهِ .

لا تجعلْ عقلَك هو الحكمَ ، مَن جعلَ عقلَه حَكماً على الشرعِ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ، اجعلِ الشرعَ حَكماً على عقلِك ، العقلُ في الأصلِ يوافقُ النقلَ ، لكنْ لو فرضنا مثلاً أنّ قضيةً في النقلِ لم توافقِ العقلَ ، دَعْ الذي مال إليه عقلُك من أجلِ طاعةِ ربكِّ .

إنّ الطبقةَ المثقَّفةَ الآن لا تقبلُ أمراً إلا بالتعليلِ ، ما حكمته ؟ لماذا الربا حرامٌ ؟ ماذا يفعلُ هذا المصرفُ ؟ إنه يخدمُ الناسَ ، يقدّمُ قروضاً ، يؤسّس مشاريعَ ، ما من شيءٍ تطرحُه على المسلمين المعاصرين إلا ويعرِضهُ على عقلِه ، نحن نحترمُ العقلَ احتراماً لا حدودَ له ، وهو مناطُ التكليفِ ، وأكثرُ من ألفِ آيةٍ تتحدّثُ عن العلمِ والعقلِ في القرآن ، ولكنْ لا ينبغي أنْ نعبدَ العقلَ من دونِ الله .

نحن مع العقل لكن لا أن نحكمه في النقل ، نحن مع الفهم لكن لا أن نعلق الطاعة على الفهم

العقلُ مهمّتهُ قبلَ النقلِ التأكّدُ من صحّة النقلِ ، وبعد النقلِ مهمّتهُ أنْ يفهمَ النقلَ ،



لكن لا يمكنُ أنْ يكونَ العقلُ حاكِمَاً على النقلِ ، العقلُ للتأكُّدِ من صحّةِ النقلِ ، ثم لفهمِ النقلِ .

هذا موضوع دقيق وقع فيه كثير من المسلمين ، وقع فيه المتفوِّقون أحياناً ، لا يقبل أحدُهم قضيةً إلاّ إذا فهِمَها عقلُه المحدودُ .

05 - محدودية العقل

إنّ العقلَ وحْده لا يعدّ مرجعاً لأمورِ الدِّينِ ، فكما أنّ العينَ لا يمكنُ أنْ ترى إلاّ بضوءٍ ، فالضوءُ يسمحُ للعينِ أنْ ترى الأشياءَ ، فكذلك العقلُ يحتاجُ إلى وحيِ السماءِ ليهتديَ إلى الحقيقةِ المطلقةِ .

ذلك لأنه مرتبطٌ ببيئةٍ محدّدةٍ ، فقصورُه عن الإحاطةِ والشمولِ بكلّ القضايا من جميعِ جوانبها ، وفي كل زمانٍ ومكانٍ لا يؤهِّله أنْ يكونَ وحْده مرجعاً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ .

[المدثر : الآية 18 – 25.]

ويشيرُ اللهُ عز وجل إلى أنّ العقلَ محدودٌ في مهمّتِه بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

[الإسراء : من الآية 85].

وقال :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ .

[الروم : الآية 7].



لو عَرَضنا على إنسانٍ عاشَ قبلَ مئةِ عامٍ قرصاً فيه ألفٌ ومئةُ كتابٍ ، تقرأُ كلَّ هذه الكتبِ حرفاً حرفاً في سبعِ ثوانٍ ، هل يقبلُ هذا ؟!

ذلك لأنّ الذي ماتَ قبل مئةِ عامٍ لم يكن في بيئتِهِ هذا الشيءُ ، لكنه الآن وقع ، معنى ذلك أن العقلّ مربوطٌ بالبيئةِ ، فما كلُّ شيء يرفضه عقلُك باطلٌ ، هذا أمرُ الله ، وهذا نهيُهُ ، فلو علمتَ من الآمرُ لبادرتَ إلى طاعتهِ ، وفضلُ كلامِ اللهِ على كلامِ خَلْقِهِ كفضلِ اللهِ على خَلْقِهِ .

بل إنّ العقلَ أحياناً يخضعُ لضغوطِ المصالحِ الشخصيةِ ، وهذا هو العقلُ التبريريُّ ، فحينما ينطلقُ الإنسانُ ليحقّقَ شهوتَه فإنه يستخدمُ عقلَه لصالحِ شهوتِه ، فما من إنسانٍ يتّبعُ شهوتَه المحرمةَ إلاّ ويغطّيها بفلسفةٍ بنحوٍ أو بآخرَ ، وقد قال اللهُ عز وجل :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ .

[الجاثية : من الآية 23] .

شيءٌ آخرُ ، هذا العقلُ مصدرُه الوحيدُ الحواسُّ ، فإذا كان هناك شيءٌ لا يُحَسّ فالعقلُ لا يصدّقه ، أو لا يصلُ إليه ، لكنّ الوحيَ يخبرنا أحياناً عن أشياءَ واقعةٍ خارجَ حواسّنا ، إذاً فالعقلُ مختصٌّ بالواقعِ بالمحسوسِ ، بل إنه يأخذُ من المحسوسِ ، ويستنبطُ حقيقةً غيبيّةً عن المحسوسِ ، أمّا إذا كان شيئاً غيرَ محسوسٍ كالماضي السحيق ، والمستقبلِ البعيدِ ، وما بعدَ الموتِ ، والكائناتِ التي أخبرنا اللهُ عنها ، فلا يستطيعُ العقلُ أنْ يصلَ إلى ذلك ، ولابدّ عندها من وحيِ السماءِ .

وأخيراً فالعقلُ لا يستطيعُ أنْ يلزمَ صاحبَه بالصوابِ ، فكم من إنسانٍ يتمتّعُ بأعلى ثقافةٍ ، وهو يدخّن ، فالمعلومةُ وحْدها لا تكفي ، ولا بد من إرادةٍ تدعّم هذه المعلومةَ .



المقوم الثالث : الفطرة

01 - الفطرة

02 - بين الفطرة والتكليف

03 - الفطرة والصبغة

04 - الفطرة والطبع

05 - من خصائص النفس الإنسانية



01 - الفطرة

لقد أودعَ اللهُ في مداركِ الأفكارِ ، وفي مشاعرِ الوجدانِ ما تدُركُ به فضائ لُ الأخلاقِ ورذائلُها ، وهذا ما يجعلُ الناسَ يشعرون بقبحِ العملِ القبيحِ ، وينفرون منه ، ويشعرون بحسنِ العملِ الحسنِ ، ويرتاحون إليه ، وبذلك يمدحون فاعلَ الخيرِ ، ويذمّون فاعلَ الشرِّ .

لقد أرشدتِ النصوصُ الإسلاميةُ إلى وجودِ الحسِّ الأخلاقيِّ في ال ضمائرِ الإنسانيةِ ، وأحالتِ المسلمَ المؤمنَ إلى استفتاءِ قلبهِفي الحكمِ على أيّ سلوكٍ قد تميلُ النفسُ إليه ، قال تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

[الشمس : الآية 7- 10].

فالنفسُ الإنسانيةُ منذ تكوينها وتسويتِها أُلهِمَتْ في فطرتِها إدراكَ طريقِ فجورِها وطريقِ تقواها ، وهذا هو الحسُّ الفطريُّ الذي تدركُ النفسُ به الخيرَ من الشرِّ .

فالإنسانُ لديه بصيرةٌ يستطيعُ أنْ يحاسبَ بها نفسهَ محاسبةً أخلاقيةً على أعمالِ ه ومقاصدِه ، ولو حاول في الجدلِ اللسانيِّ الدفاعَ عن نفسِه ، وإلقاءَ معاذيره على غيرِه ، قال تعالى :

﴿ بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

[القيامة : 14- 15] .

روى الإمامُ مسلمٌ في صحيحه عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : ((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ : الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)) .

[مسلم (2553) ، الترمذي (2389) ، الدارمي (2789)].



هذا الحديثُ يدلّ على أنّ في النفسِ الإنسانيةِ حساً خُلقياً بالإثمِ ، لذلك يكرهُ فاعلُ الإثمِ أنْ يطّلعَ عليه الناسُ ، لأنه يعلمُ أنهم يشعرون بمثلِ ما يشعرُ ، وذلك بحسٍّ أخلاقيٍّ موجودٍ في أعماقِ النفسِ ، هذا الحسُّ هو ما سمّاه الباحثون الأخلاقيُّون الضميرَ .

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الْأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِوَابِصَةَ : ((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ ، وَقَالَ : اسْتَفْتِ نَفْسَكَ ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ ، ثَلَاثًا ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ،وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ،وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ)) .
[الدارمي (2533)].

في هذا الحديثِ الشريفِ تبيانٌ واضحُ للحسِّ الأخلاقيِّ ، أو الضميرِ الأخلاقيّ ، هذا الضميرُ إذا كان نقياً صافياً سليماً من العِللِ والأمراضِ فإنه يستطيعُ أنْ يحسَّ بفضائلِ الأخلاقِ ، ومحاسنِ السلوكِ ، وأنْ يحسَّ برذائلِ الأخلاقِ ، ومساوئ السلوكِ ، وأن يميِّزَ بين الصنفَيْنِ .

إنّ البرَّ المفسرَّ في كلامِ رسولِ اللهِ ﷺ بأنه حُسنُ الخُلُقِ يفعلهُ الإنسانُ السويُّ ، وهو مطمئنُّ القلبِ والنفسِ ، أمّا الإثمُ فإنّ الإنسانَ السويَّ لا يقدِمُ عليه إلا وفي نفسهِ قَلَقٌ منه ، وفي صدرِه تردُّدٌ واضطرابٌ ، فالطمأنينةُ علامةُ البرِّ ، والتردّدُ والاضطرابُ وخوفُ اطّلاعِ الناسِ علامةُ الإثمِ ، ولكن قد يختلطُ الأمرُ في بعضِ الأعمالِ على العقلِ والضميرِ ، ويلتبسُ عليهما وجهُ الحقِّ ، فيكونان حينئذٍ في حاجةٍ إلى هدايةٍ وتبصيرٍ ، وقد تطغى الأهواءُ والشهواتُ ، أو العاداتُ والتقاليدُ ، أو يؤثِّرُ فيهما الموجِّهون المضلِّون ، أو الشياطينُ المُوَسوِسُون من الجنِّ والإنسِ ، وطريقةُ المسلمِ في هذه الحالةِ هي اتقاءُ الشبهاتِ ، فإذا كان اتقّاءُ الشبهاتِ في جانبِ التركِ ، لأنّ الأمرَ مشتبهٌ بين الحلالِ والحرامِ كان الأفضلُ للمسلمِ أن يتركَ العملَ المشتبهَ فيه



خشيةَ الوقوعِ في الحرامِ ، وإذا كان اتقّاءُ الشبهاتِ في جانبِ الفعلِ ، لأنّ الأمرَ مشتبهٌ بين الحلالِ والواجبِ كان الأفضلُ للمسلمِ أن يأتيَ بالعملِ المشتبهِ فيه خشيةَ الوقوعِ في تركِ الواجبِ ، والدليلُ على هذه الطريقةِ التي ينبغي للمسلمِ أنْ يتبعَّها ما رواه البخاري ومسلم من عدّة طرقٍ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((الْحَلَالُ بَيِّنٌ ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)).

[البخاري (52) ، ومسلم (1599)].

هذا الحديثُ الشريفُ الصحيحُ من أحاديثِ الأصولِ الجوامعِ ، وفيه كليّ اتٌ عظيمةٌ تتصّلُ بأمّهاتِ السلوكِ ، وفيه تقسيمٌ ثلاثيٌّ للأحكامِ الشرعيةِّ .

فالقسمُ الأولُ : هو الحلالُ الصرفُ البيِّنُ الواضحُ الذي لم تخالطْه شبهةٌ ، ولا يختلف فيه الناسُ ، ولا تتأثمُّ منه النفوسُ ، ولا تتحرّج .

والقسمُ الثاني : الحرامُ الصرفُ البيِّنُ الواضحُ الذي لا يختلفُ فيه عقلاءُ الناسِ وأصحابُ البصيرةِ ، ولا يفعله فاعلٌ إلا وفي نفسِهِ حرجٌ وشعورٌ بالإثمِ ، وخوفٌ من سوءِ المصيرِ .

والقسم الثالث : المشتبهاتُ ، وسمِّيتْ بذلك لأنّ لها شبَهاً بالحلال يزيد وينقص ، وشبَهاً بالحرام يزيدُ وينقصُ ، وهي تلتبسُ وتختلطُ على كثيرٍ من الناس ، ولكن لا على كلّ الناسِ ، فالعلماء المحققِّون للشبهاتِ كاشفون ، وقد جاءت كلمةُ الشبهاتِ جمعاً لأنها متفاوتةٌ في قربِها من الحلالِ ، وقربِها من الحرام ، والأسلمُ للمسلمِ الصادقِ في استسلامِه إلى ربهّ أنْ يدعَ هذه الشبهاتِ استبراءً لدينِهِ عند الله ، وعرضِهِ عند الناسِ ، وقد قال رسول الله ﷺ : ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ)) .

[رواه الترمذي (25 18) ، والنسائي (5220) ، وأحمد (12572) عن الحسن بن علي] .



وعَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ ، وكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ)) .

[الترمذي (2451) ، وقال حديث حسن ، ابن ماجه (4215)].

لما كان الإنسانُ مزوَّداً في أصلِ كيانه بعقلٍ إذَا أعملهَ متفكراً في خَلقِ السماواتِ والأرضِ أوصله إلى الإيمانِ باللهِ خالقاً ، ومربياً ، ومسيّراً ، موجوداً وواحداً ، وكاملاً .

ولما كان الإنسانُ مزوّداً في أصلِ فطرته بحسٍّ أخلاقيٍّ كافٍ لإدراك الخيرِ والشرّ ، والحقِّ والباطلِ من دونِ معلمٍ ، ولا موجِّهٍ ، ولا كتابٍ منيرٍ فإنه مزوّدٌ بعقلٍ يدلهّ على اللهِ ، ومزوّدٌ بفطرةٍ تدلهّ على خطئِهِ ، لذلك بما أنه مزوّدٌ في أصلِ كيانِهِ بعقلٍ ، وفي أصلِ فطرته بضميرٍ كافيَيْنِ لمعرفةِ عظمةِ اللهِ ، ولمعرفةِ حالِ نفسِه ، يُقال له يومَ القيامةِ عندما يُسلَّمُ كتابَ عملِهِ في الحياة الدنيا :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

[الإسراء : الآية 14] .

أي : إنك ستحاسبُ نفسكَ لأنك تملكُ مِيزَانَيْنِ ، ميزانِ العقلِ ، وميزانِ الفطرةِ .

وفضلاً عن الحسِّ الأخلاقيّ الذي أودعه اللهُ في الإنسانِ إدراكاً وشعوراً ، فهنالك قواعدُ هاديةٌ للبصيرةِ الأخلاقيةِ ، نبهّ إليها النبيُّ ﷺ ، من هذه القواعد : " عامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك " .

وقد جاء هذا المعنى في حديثٍ طويلٍ رواه الإمامُ مسلمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)) .

[مسلم (1844) ، أحمد (6793) و(6807)].



فكلما اشتبهَ على الإنسانِ أمرُ السلوكِ فعليه أنْ يضعَ نفسهَ مكانَ الطرفِ الآخرِ ، ويفترض أنّ الأمرَ كان معكوساً ، فالأمرُ الذي يستحسنه لنفسهِ من الآخرين ممّا لا معصيةَ فيه هو الأمرُ الذي ينبغي أن يفعلهَ معهم ، لذلك على المؤمنِ أنْ يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ، وأن يكرهَ له ما يكرهُ لنفسه ، روى البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)).

[البخاري (13) ، مسلم (45)].

ومن هنا يندفعُ المسلمُ إلى أن يكونَ صادقاً مع أخيه ، لأنه يحبّ أن يصدّقهَ الناسُ إذا حدّثوه ، ويكرهَ أن يكذّبوه ، ويندفعُ المؤمن إلى أن يكونَ أميناً على مالِ أخيه وعرضهِ وشرفهِ ، لأنه يحبّ أن يعاملهَ الناسُ بأمانةٍ على مالهِ وعرضِه وشرفِه ، ويكرهَ أن يخونوه في شيءٍ من ذلك ، ويندفعُ المؤمنُ إلى مساعدةِ أخيه ومعاونتهِ ، في مالٍ أو علمٍ أو جاهٍ أو خدمةٍ أو نصيحةٍ أو دعوةٍ صالحةٍ أو شفاعةٍ حسنةٍ ، لأنه يحبّ لنفسهِ مثلَ ذلك من إخوانه ، ويندفعُ المؤمنُ إلى دعوةِ أخيه إلى الإيمانِ الصادقِ والعمل الصالح ، لأنه أحَبّ هذا لنفسهِ ، وهكذا تجدُ المسلمَ مدفوعاً إلى الصبرِ والعفوِ والصفحِ والمسامحةِ يحاولُ بأقصى جهدِه سترَ العيوبِ ، وعدمَ نشرِها بين الناسِ ، بل يبادرُ إلى نصحِهم سرًّا ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، إنه يفعل ذلك لأنه يحبّ أن يُعَامَلَ هكذا .

فما الهدفُ من التزامِ مكارمِ الأخلاقِ التي ترتاحُ إليها الفطرةُ ، والتي أمرَ بها الإسلامُ ، أو رغّب بفعلِها ؟

وما الهدفُ من اجتنابِ نقائصِ الأخلاقِ ، والتي تنكرُها الفطرةُ ، والتي نهى عنها الإسلامُ ، أو رغب في تركِها ؟

الهدفُ من هذا وذاك هو الفوزُ بسلامةِ القلبِ ، وسعادته ، ونيل الجزاءِ المعجَّلِ في الدنيا ، والنجاةِ من العقابِ المعجّلِ فيها ، ثم الفوزُ العظيمُ بالسعادةِ المطلقةِ الأبديةِ في الآخرةِ .



إنّ لذّاتِ الجسدِ وآلامَه أهونُ اللذّاتِ والآلامِ قيمةً في حياةِ الإنسانِ ، ولكنها تدخلُ ضمنَ الوحداتِ الجزئيةِ التي تمنحُ الإنسانَ قسطاً من السعادةِ ، لكنها كرذاذٍ سريعِ الجفافِ لا يملأُ ساحةَ النفسِ والقلبِ والفكرِ ، وتأتي فوقَ لذّاتِ الجسدِ لذّاتُ النفسِ الدنيويةُ وآلامُه ، وهي أعمقُ وأشملُ وأطولُ ، ثم تأتي فوق لذّاتِ النفسِ الدنيويةِ سعادةُ النفسِ الأخرويةُ ، وهي تتغلغلُ إلى أعمقِ أعماقِ الإنسانِ ، وتتسّعُ حتى تشملَ كلَّ حياته ، وكلّ نشاطاته ، وكلّ حركاتهِ وسكناتهِ ، وهي أبديةٌ لا تزولُ أبداً ، لها بدايةٌ مع بدايةِ الإيمانِ ، وليس لها نهايةٌ ، وهي متناميةٌ دائماً .

قد تطغى لذّةُ النفسِ على ألمِ الجسدِ ، فلا يشعرُ الإنسانُ بألمِ الجسدِ ، وقد تطغى سعادةُ النفسِ الأخرويةُ على ألمِ النفسِ الدنيويّ ، فلا يشعرُ الإنسانُ بهذا الألمِ ، وقد تطغى آلامُ النفسِ على لذّاتِ الجسدِ ، فلا تكونُ لهذه اللذّاتِ أيُّ قيمةٍ .

مجملُ القولِ : إنّ الإنسانَ إذا لزمَ مكارمَ الأخلاقِ التي ترتاحُ إليها الفطرةُ ، والتي يطمئنّ إليها القلبُ يحقّقُ الغايةَ من وجودِه ، ومن سلامةِ وجوده ، ومن كمالِ وجوده ، ومن استمرارِ وجوده ، ذلك لأن في القلبِ شعثاً لا يلمُّه إلا الإقبالُ على اللهِ ، وفي القلبِ وحشةٌ لا يزيلُها إلا الأنسُ بالله ، وفيه حزنٌ لا يذهبه إلا السرورُ بمعرفةِ الله ، وفيه قلقٌ لا يسكنُه إلا الاجتماعُ عليه ، والفرارُ إليه ، وفي القلبِ نيرانُ حسراتٍ لا يطفئها إلا الرضى بأمرِه ونهيهِ ، وقضائهِ وقدرِه ، والصبرُ على ذلك إلى يومِ لقائه ، وفي القلبِ فاقةٌ لا يسدُّها إلا محبتُهُ ، والإنابةُ إليه ، ودوامُ ذِكْرِه ، والإخلاصُ له .

ومجملُ مجملِ القولِ : إنّ الإيمانَ أساسُ الفضائلِ ، ولجامُ الرذائلِ ، وقوامُ الضمائرِ ، وقد بين النبيُّ ﷺ أنّ أحسنَ الناسِ إسلاماً أحسنُهم خُلُقاً ، وأنّ أكملَهم إيماناً أحسنُهم خُلُقاً ، وأنّ مِن أحبِّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ أحسنَهم خُلُقاً ، وأنّ خيرَ ما أعطي الإنسانُ خلقٌ حسنٌ ، وأنه ما من شيءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خُلُقٍ حسنٍ ، وأنّ المؤمنَ يدركُ بحسنِ خُلُقه درجةَ الصائمِ القائمِ ، بل إنّ العبدَ ليبلغُ بحسنُ خُلُقه عظيمَ درجاتِ الجنةِ ، والخُلُقُ الحسنُ يذيبُ الخطايا كما يذيبُ الحرُّ الجليدَ ، والخلقُ السوءُ يفسدُ العملَ كما يفسدُ الخلّ العسلَ .



إليكم قصةَ صحابيّ جليلٍ ، هو كعبُ بن مالك ، تخلّفَ عن غزوةِ تبوكَ من دونِ عذرٍ ، كيف كانت محنتهُ مع نفسهِ ؟ وكيف كان موقفهُ من رسولِ اللهِ ﷺ ، ثمّ كيف انتهت محنتهُ إلى منحةٍ إلهيةٍ ؟ وكيف انتهتْ شدّتهُ إلى شدّةٍ إلى اللهِ ورسولهِ ؟ هذه القصةُ متوافقةٌ مع موضوعِ الفطرةِ توافقاً دقيقاً .

أخرج البخاريّ حديثَ الثلاثةِ الذين تخلفّوا عن غزوةِ تبوكَ ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، وكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ : سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبٌ : ((لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، ولَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ ، ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، ومَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا ، كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ ، واللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، ولَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا ورَّى بِغَيْرِهَا ، حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا ، ومَفَازًا ــ صحارى ــ وعَدُوًّا كَثِيرًا ، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ ، والْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ ، ولَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ ، وغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ والظِّلَالُ ، وتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ والْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ ، فَأَرْجِعُ ، ولَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ والْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، ولَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا ، فَقُلْتُ : أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ ، فَرَجَعْتُ ، ولَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، ثُمَّ غَدَوْتُ ، ثُمَّ رَجَعْتُ ، ولَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وتَفَارَطَ الْغَزْوُ ، وهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ



فَأُدْرِكَهُمْ ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ : مَا فَعَلَ كَعْبٌ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : بِئْسَ مَا قُلْتَ ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي ، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ ، وَأَقُولُ : بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا ، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا قِيلَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ ، وَبَايَعَهُمْ ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ ، فَجِئْتُهُ ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ : تَعَالَ ، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لِي : مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ فَقُلْتُ : بَلَى ، إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ لَا ، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ ، فَقُمْتُ ، وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ ، فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي : وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لَكَ فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ ، فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا



قُلْتَ ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ ، فَقُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا ، فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي ، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا ، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ ، وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِ لَيَّ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ ، فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ ، فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ ، قَالَ : فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِ ينَةِ يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ، فَإِذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ ، وَلَا مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا : وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ ، فَسَجَرْتُهُ بِهَا ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْ سِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ ، فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ قَالَ : لَا ، بَلْ اعْتَزِلْهَا ، وَلَا تَقْرَبْهَا ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي : الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، قَالَ كَعْبٌ : فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟ قَالَ : لَا ،



وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ ، قَالَتْ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا ، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي : لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ ، فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا ، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي ، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ ، أَبْشِرْ ، قَالَ : فَخَرَرْتُ سَاجِدًا ، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا ، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ ، فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي ، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ ، يَقُولُونَ : لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، قَالَ كَعْبٌ : حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي ، وَهَنَّانِي ، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ ، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ : أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ، قَالَ : قُلْتُ : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، قُلْتُ : فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ



مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي ، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ ، إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَى قَوْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، قَالَ كَعْبٌ : وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ ، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنْ الْغَزْوِ ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا ، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ)) .

[البخاري (35 37)] .

الفصلُ الأخيرُ من هذه القصةِ ذَكَرَه القرآنُ في سورةِ التوبةِ ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

[التوبة : الآية 117 – 118] .

كعبُ بنُ مالكٍ هو أحدُ هؤلاءِ الثلاثةِ الذين وردَ ذِكرُهم في القرآنِ الكريمِ .



قال تعالى :

﴿ بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾.

[القيامة : 14 – 15] .

أذكِّركم بقولِ النبي ﷺ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا)) .

[رواه البخاري (5743) ، مسلم (2607) ، أبو داود (4989)].

02 - بين الفطرة والتكليف

هذا الموضوعُ تَحكُمُه الآيةُ الكريمةُ :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ .

[سورة الروم الآية : 30].

والإقامةُ أعلى درجةً من النشاطِ ، وحنيفاً أي : مائلاً ، وهذا يذكّرنا بتعريفِ العبادةِ ، إنها طاعةٌ طوعيةٌ ، ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبيةٍ ، فمن أطاعَ الله ، ولم يحبّه لم يعبدْه ، ومن أحبّه ، ولم يطعْه لم يعبدْه ، هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ .

في هذه الآيةِ ملمحٌ رائعٌ ، أنْ تقيمَ وجهَك للدينِ حنيفاً هو الأصلُ نفسُه الذي فُطِرَتْ عليه النفسُ البشريةُ ، فالإنسانُ مفطورٌ على حبّ العدلِ ، وقد أُمِرَ بالعدلِ ، مفطورٌ على



حبّ الرحمةِ ، وقد أُمِرَ أنْ يرحمَ مَ ن في الأرضِ ، فكلُّ أوامرِ اللهِ عز وجل ، وكلُّ النواهي التي نُهِينَا عنها متطابقةٌ تطابقاً تامًّا مع فطرةِ الإنسانِ .

فاللهُ عز وجل يقولُ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، أي : إنّ الإنسانَ مجبولٌ ، وبالمصطلحِ الحديثِ مبرمجٌ ومولّفٌ على حبّ الخيرِ ، إذاً النفسُ البشريةُ التي فَطَرَها اللهُ عز وجل متطابقةٌ تطابقاً تامًّا مع منهجِ اللهِ ، لذلك شيءٌ طبيعيٌّ جداً أنّ الإنسانَ لمجرّدِ أنْ يستقيمَ على أمرِ اللهِ ، ويصطلحَ مع الله ، لمجرّدِ أنْ يتوبَ إلى اللهِ يشعرُ وكأنّ جبالاً أُزيحتْ عن كاهِله ، لأنه وجدَ نفسَه ، لأنه وجدَ مبادئَ فطرتِه ، لأنه اصطلحَ مع نفسِه ، ولأن هذه النفسَ أصبحتْ نغماً منسجماً مع الكونِ ، كانت نغماً شاذًّا ، فلمّا اصطلحتْ مع اللهِ عز وجل كان التنسيقُ والانسجامُ .

إنّ الراحةَ النفسيّةَ ، والسكينةَ ، والسعادةَ هي النتيجةُ الحتميّةُ لمَن أطاعَ ربَّه ، فانسجمَ مع فطرتِه .

إنّ القلقَ والتشاؤمَ والسوداويةَ والكآبةَ والضيقَ هي عقابٌ سريعٌ تعاقِبُ النفسُ به ذاتَها ، فأكثرُ الأمراضِ النفسيّةِ مبعثُها مخالفةُ الفطرةِ ، ويكادُ مرضُ الكآبةِ يكون أوسعَ الأمراضِ انتشاراً في العالَمِ ، لأنّ الإنسانَ عن علمٍ أو عن جهلٍ يخالفُ مبادئَ فطرتِه ، فتعذبُّه نفسُه ، ولولا أنّ الفطرةَ تحبّ الكمالَ ، وتتطلّعُ إليه لمَا عَذَّبَ أحدٌ نفسَه إذا خالفَ الكمالَ ، وما من إنسانٍ كائناً مَن كان يخ رجُ عن منهجِ اللهِ عز وجل إلا وتعذِّبه نفسُه ، ويظهرُ هذا العذابُ بطبعٍ حادٍّ ، وبردودِ فعْلٍ قاسيةٍ ، وبكلماتٍ لا تُحتمَل ، وبضجرٍ وضيقٍ ، إنه يعاني من اضطرابٍ داخليٍّ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِ يمَةَ ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ ؟)) .

[البخاري (1292) مسلم (2658) ، أحمد (7181)].



ويقول عليه الصلاةُ والسلامُ في الحديثِ الصحيحِ : ((إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُم . وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِم)) .

[مسلم (2865) ، النسائي (8070)].

فالشيطانُ أحياناً يطمسُ الفطرةَ ، لذلك الفطرةُ السليمةُ هي المقياسُ ، لكنّ الفطرةَ المطموسةَ بالشهواتِ هذه لم تَعُدْ مقياساً صالحاً لتقييمِ أعمالِ الإنسانِ .

03 - الفطرة والصبغة

هناك نقطة دقيقة جداً ، ثمَّةَ فرقٌ كبيرٌ بين أن تكون خيّراً وأن تحبّ الخيرَ ، محبّةُ الخيرِ شيءٌ ، وأن تكونَ خيّراً شيءٌ آخرُ ، محبّةُ الخيرِ فطرةٌ ، أمّا أنْ تكونَ خيّراً فهذه صبغةٌ ، ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ .

[البقرة : من الآية 138].

فأيُّ إنسانٍ كائناً مَن كان يحبّ العدلَ ، يحبّه فقط ، وقد يكون ظالماً ، يحبّ الرحمة ، وقد يكونُ قاسياً ، يحبّ العفّةَ ، وقد يكونُ متورّطاً ، لكن حينما يتّصلُ بالله عز وجل ، ويشتقُّ من كمالِه عز وجل تَحُلُّ الصبغةُ محلَّ الفطرةِ ، كان يحبّ العدلَ فأصبحَ عادلاً ، كان يحبّ الرحمةَ فأصبح رحيماً .

إذاً ينبغي أن نفرّقَ بين الفطرةِ والصبغةِ ، الصبغةُ متعلّقةٌ بالمؤمنين الذين عرفوا اللهَ عز وجل ، وعرفوا منهجَه ، وأطاعوه ، فتولّدَ في نفوسِهم أنّ اللهَ يحبُّهم ، فأقبلوا عليه ، واشتقُّوا من كمالِه ، حيث إنّ مكارمَ الأخلاقِ مخزونةٌ عند اللهِ تعالى ، فإذا أحبَّ اللهُ عبداً منحَه خُلقاً حسناً ، و الأصلُ أنّ النفوسَ جُبِلَتْ على الفطرةِ وفُطِرَتْ على الكمالِ ، أمّا أنْ تكونَ كاملةً ، أو غيرَ كاملةً فهذا موضوعٌ آخرُ .



04 - الفطرة والطبع

ولكن هناك نقطةٌ دقيقةٌ جداً يجب ألاّ تغيبَ عن أذهاننا ، وهي أنّ الفطرةَ شيءٌ ، والطبعُ شيءٌ آخرُ ، الطبعُ مرتبطٌ بالجسمِ ، فهذا الجسمُ يُرِيحُه أنْ يبقى نائماً إلى ما بعد طلوعِ الشمسِ ، لكنّ التكليفَ يأمرُه أنْ يستيقظَ ، وفي هذا مشقّةٌ على الجسمِ ، فإذا استيقظَ ، وصلّى صلاةَ الفجرِ في وقتِها ارتاحتْ نفسُه ، فكأنّ الأمرَ الإلهيَّ يريحُ النفسَ ، ويُتعِبُ الجسمَ ، هذا التناقضُ بين خصائصِ طبعِ الإنسانِ والتكليفِ هو ثمنُ الجنّةِ ،﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

[سورة النازعات : الآية 40 – 41].

فالفطرةُ متطابقةٌ تطابقاً تاماً مع خصائصِ هذا المنهجِ ، لذلك حينما تستقيمُ على أمرِ اللهِ تشعرُ براحةٍ ، لذلك قالوا : " في الدنيا جنّةٌ مَن لم يدخلها لم يدخلْ جنّةَ الآخرة " ، وقيل : " المؤمنُ عنده شعورٌ بالأمنِ لو وُزِّع على أهلِ بَلَدٍ لكفاهم " ، هذا أمنُ الإيمانِ ، وهذا ينقلنا إلى قولِ النبيّ ﷺ : ((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ)).

[الترمذي (2346) ، ابن ماجة (4141) عن عبد الله بن محصن الخطمي].

إنه آمِنٌ لا لأنه غني ، ولا لأنه قويٌّ ، إنه آمِنٌ لأنه واثقٌ من وعدِ الله له بالحسنى ،

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ ﴾

[القصص : الآية 61].

يشعر أنّ اللهَ يحبّه ، وأنه على منهجِ الله سائرٌ ، وأنه موعودٌ بالجنةِ ، وأنه لم يؤذِ مخلوقاً كائناً مَن كان ، وأنه بنَى حياتَه على العطاءِ ، والطرفُ الآخرُ بنَى حياتَه على الأخذِ ، فالمؤمنُ يسعِدُه أن يعطيَ مِن كلِّ ما أعطاه اللهُ ، مِن وقتِه ، من مالِه ، مِن جهدِه ، من علمِه ، من خبرتِه ، يسعدُ بالعطاءِ ، لأن الأنبياءَ جاؤوا إلى الدنيا فأعطوا كلِّ شيءٍ ، ولم يأخذوا شيئاً ، والطغاةُ أَخذوا كلَّ شيءٍ ، ولم يعطوا شيئاً ، ليس في الأرض



إلا رجلان ؛ رجلٌ عرفَ اللهَ ، وعرفَ منهجَه ، فانضبط بمنهجِه ، وأحسنَ إلى خَلْقِهِ ، فسعدَ في الدنيا والآخرةِ ، ورجلٌ غفلَ عن اللهِ ، وبالتالي تفلَّتَ من منهجِه ، ومن لوازمِ التفلّتِ من المنهجِ الإساءةُ إلى الخَلْقِ ، فشقيَ في الدنيا والآخرةِ .

إذاً الطبعُ متعلِّقٌ بالجسمِ بعضَ التعلُّق ، أما الفطرةُ فمتعلِّقةٌ بالنفسِ .

الفطرةُ تتوافقُ مع منهجِ اللهِ ، والطبعُ يتناقضُ مع منهجِ اللهِ ، وحينما يصطلحُ الإنسانُ مع اللهِ عز وجل يريحُ نفسَه راحةً عاليةً .

السيّارةُ السياحيّةُ مصنوعةٌ للسيرِ على طريقٍ معبَّدٍ ، فحينما تركبُها على الطريقِ المعبَّدِ تأخذُ كلَّ ميزاتِها ، صوتٌ ناعمٌ ، سرعةٌ جيّدةٌ ، كلُّ الأمورِ التي صُنِعَتْ لها تقطفُ ثمارَها ، وهي على الطريقِ المعبّدِ ، أما لو سِرْتَ بها في طريقٍ وَعْرٍ فيه أكماتٌ وصخورٌ وحُفَرٌ فإنها تتكسرُ ، ولا تنطلقُ ، وتنزعجُ منها ، وقد تصابُ بالعطبِ ، لأنها مصنوعةٌ للطريقِ المعبّدِ ، فلا ترتاحُ بهذه المركبةِ ، ولا تنطلقُ بها ، ولا تشعرُ بميزاتِها إلا في الطريقِ المعبّدِ ، أما المدرّعةُ مثلاً فمصنوعةٌ للطريقِ الوعرِ .

حينما أتيقّنُ أنّني متوافقٌ مع منهجِ اللهِ ، وأصطلحُ مع اللهِ ، وأتوبُ إليه ، أشعرُ براحة ، وما مِن راحةٍ في بني البشرِ تفوقُ راحةَ التائبِ إلى الله ، ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

[الأنعام : الآية 81 – 82].

لو قال الله عز وجل : أولئك الأمنُ لهم أي : ولغيرهم أيضاً ، ولكنه سبحانه قال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ وَحْدَهم ، فليس على وجهِ الأرضِ إنسانٌ آمنٌ حقيقةً إلا المؤمنُ ، أمّا الذي أشركَ باللهِ عز وجل فإنّ اللهَ يقذفُ في قلبِه الخوفَ .



05 - من خصائص النفس الإنسانية

هذا الإنسانُ المخلوقُ المكرَّمُ ينطوي على نفسٍ هي ذاتهُ ، هي المكلَّفةُ ، والمحاسبَةَ ، وهي التي تؤمنُ أو تكفرُ ، هي التي تشكرُ وتصبرُ ، وتسمو وتنحطُّ ، وتخلدُ في جنةٍ يدوم نعيمُها ، أو في نارٍ لا ينفدُ عذابهُا ، هذه النفسُ الإنسانيةُ لا تموتُ ، ولكنها تذوقُ الموتُ ، وفرقٌ كبيرٌ بين أنْ تموتَ ، وأنْ تذوقَ الموتَ ، قال تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾.

[آل عمران : من الآية 185].

هذه النفسُ البشريةُ قد يكونُ خطُّها البيانيُّ صاعداً صعوداً حادًّا ، وعند الموتِ تسقطُ سقوطاً مريعاً إلى أسفلِ السافلين ، أمّا نفسُ المؤمنِ ففي حركةٍ صاعدةٍ صعوداً مستمرًّا ، وما الموتُ إلا نقطةٌ على هذا الخطِّ ، والصعودُ مستمرٌّ ، هذا الإنسانُ فيه جسدٌ ونفسٌ ، والموتُ انفصالُ هذه النفسِ الخالدةِ عن الوعاءِ الماديِّ الذي هو الجسدُ .

وهناك عنصرٌ ثالثٌ ، هو الروحُ ، أي القوّةُ المحرِّكةُ ، بل إنّ الروحَ إذا انقطعت عن الإنسانِ أصبحَ جثّةً هامدةً ، أين رؤيةُ العينِ ؟ أين عملُ الكبدِ ؟ أين أجهزتهُ ؟ كلهُ تعطّلَ ، وأصبحَ جثّةً هامدةً ؟ لكنّ البحثَ في الروحِ عديمُ الجدوى ، لقولِهِ سبحانه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

[الإسراء : الآية 85].

فللإنسانُ فيه نفسٌ هي ذاتهُ ، وفيه جسمٌ هو وعا ؤُه ، وفيه روحٌ هي قوّ تُه المحرِّكةُ ، لو نظرنا إلى نفسِهِ لوجَدْنا أنّ لها خصائصَ وسماتٍ وقوانينَ ، والعالمَ كلّهُ اليومَ يهتمُّ بالجسمِ لا بالنفسِ ، يسعى لرفاهيةِ الجسمِ ، وقد غفلَ عن النفسِ ،



وقد صدقَ مَن قال :

يا خادِمَ الجسمِ كم تشقى في خدمتِه أتطلبُ الربحَ فيما فيه خسرانُ
انهض للنفس واستكمِلْ فضائلَهـــــا فإنك بالروحِ لا بالجسمِ إنسانُ

في الإنسانِ نفسٌ لا يملؤها إلا معرفةُ الله عز وجل ، لا تملؤُها إلا طاعتهُ ، ولا

يملؤها إلا أن تكونَ قريرةَ العينِ بربهّا ، هذه الحاجةُ إلى الإيمانِ باللهِ وطاعته ، هذه حاجةٌ أصيلةٌ ، وقد وردت خصائصُ النفسِ الإنسانيةِ في بعضِ الآياتِ القرآنيةِ .

الخصيصةُ الأولى : الإنسانُ هلوعٌ :

اللهُ جل جلاله لحكمةٍ بالغةٍ خَلَقَ هذا الإنسانَ هلوعاً ،

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ .
[المعارج : الآية 19 – 22].

فمن خصائصِ الإنسانِ أنه شديدُ الهلعِ إذا لاح له شبحُ مصيبةٍ ! وهذا من نقاطِ الضعفِ التي هي في أصلِ خَلْقِهِ ، ولكنها لصالحِه ، أوضِّحُ هذا بمثلٍ :

لو أنّ شركةً صنَّعتْ جهازاً غالياً جداً بالغَ التعقيدِ لاضطرَّتْ أنْ تضعَ قطعةً ضعيفةً جداً في طريقِ التيارِ اسمُها (الفيوز) ، هذه القِطعةُ رخيصةٌ ، لكنها نقطةُ ضعفٍ مدروسةٌ في أصلِ هذا الجهازِ ، فإذا جاء التيارُ الكهربائيُّ عالي المستوى ذابتْ هذه القطعةُ ، وانقطع التيارُ ، فلم يتلف الجهازُ ، فهذه نقاطُ الضعفِ التي هي في أصلِ خَلْقِ الإنسانِ إنما هي لصالحِه .

كيف يتوبُ إلى اللهِ إنْ لم يكن هلوعاً ؟ كيف يعودُ إليه ؟ وكيف يصطلحُ مع اللهِ ؟ كيف يؤدِّبه الله عز وجل ؟ وكيف يسوقُه إلى بابهِ ، وبابِ طاعته ؟ كيف يحملُ ه على التوبةِ إنْ لم يكن هلوعاً ؟



لقد ثبتّ الله عز وجل ملياراتِ الأشياءِ في الحياةِ ، فللقوانينُ كلّها ثابتةٌ ، قوانينُ المعادنِ وخصائصها ، وخصائصُ البذورِ ، حركةُ الكواكبِ ثابتةٌ ، بل إنّ هذه الساعةَ المشهورةُ ، ساعةُ (بيك بن) ما الذي يضبطها ؟ حركةُ نجمٍ ! فالله سبحانه وتعالى ثبّت أشياءَ لا تعد ولا تحصى ، لكنه حرّك الصحةَ والرزقَ ، الرزقُ ليس ثابتاً ، قد تأتي أمطارٌ غزيرةٌ ، وأحياناً تأتي نسبٌ قليلةٌ جداً ، فللرزقُ متبدّلٌ ، والصحّ ةُ متبدّلةٌ ، ولحكمةٍ أرادها اللهُ عز وجل فإنّ تغيُّ الصحةِ والرزقِ يعدُّ أحدَ الوسائلِ الفعّالةِ في تربيةِ الإنسانِ ،

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ .

هذا الذي اتصّلَ بالله عز وجل نجا من هذا الضعفِ الخُلقيّ .

شيءٌ آخرُ ، هو أنّ خصائصَ النفسِ حياديّةٌ ، الإنسانُ يحبّ أنْ يتفوّ قَ ، فـإذا استغلّ هذه الخصيصةَ ليتنافسَ مع أخيه الإنسانِ في عملِ الآخرةِ يرقى ، وإذا استغلّ هذه الخصيصةَ ليتنافسَ مع أخيه الإنسانِ على حطامِ الدنيا كان الشقاءُ .

الخصيصةُ الثانيةُ : الإنسانُ مَنوُعٌ :

إنّ الإنسانَ حريصٌ على ما في يديه ، ننطلقُ من هنا إلى فكرةٍ دقيقةٍ ، ه ي أن الطبعَ يتناقضُ مع التكليفِ ، وهذا التناقضُ هو ثمنُ الجنةِ .

إنّ طبعَ الإنسانِ يدعوه لأخذِ المالِ ، والتكليفُ يأمرُه أن ينفقَ المالَ ، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن يملأَ عينيه من محارمِ النساءِ من دونِ قيدٍ أو شرطٍ ، والتكليفُ يقتضي منه أنْ يغضّ البصرَ عمّن لا تحلُ له ، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن ينامَ وقت صلاةِ الفجرِ ، والتكليفُ يأمرُه أن يستيقظَ ، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن يتحدّ ثَ في فضائحِ الآخرين ، ويمتعَ الحاضرين ، لكن التكليفَ يقتضي أن يصمتَ ، فلذلك من تناقضِ الطبعِ مع التكليفِ يكون ثمنُ الجنةِ .



الخصيصةُ الثالثةُ : الإنسانُ عَجولُ :

من خصائصِ النفسِ البشريّةِ خصيصةٌ وردتْ في قولِه تعالى :

﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ .

[الإسراء : من الآية 11] .

يصفُ اللهُ عز وجل في سورةِ البقرةِ المؤمنين بصفةٍ تَلفتُ النظرَ ، قال تعالى :

﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾.

[البقرة : 1 – 3].

هناك شهودٌ ، وهناك غيبٌ ، عالَمُ الشهادةِ ، وعالَمُ الغيبِ ، في عالَ مِ الشهادةِ الشهواتُ مستعرةٌ ، والفتنُ ثائرةٌ ، والدنيا خضرةٌ نضرةُ ، أما عالَمَ الغيبِ ، عالَمُ ما بعد الموتِ فهناك جنةٌ يدوم نعيمُها ، و نارٌ لا ينفدُ عذابُها ، لكنّ الآخرةَ خبرٌ ، والدنيا محسوسةٌ .

أمامك بيتٌ جميلٌ ، ومركبةٌ فارهةٌ ، وطعامٌ طيّبٌ ، وامرأةٌ جميلةٌ ، هذه كلّها محسوسةٌ أمامك ، إلاّ أنّ الجنةَ والنارَ خبران في القرآنِ ، وفي الكتبِ السماويةِ الأخرى ، فلو أن إنساناً يركبُ دراجةً ، ووصلَ إلى طريقين ؛ طريقٍ هابطٍ ، ــــ وطريقٍ صاعدٍ ، الطريقُ الهابطُ معبّدٌ تحفهُ الأشجارُ والأزهارُ ، وراكبُ الدارجةِ يرتاحُ في الطريقِ الهابطِ قطعاً .

كلُّ معطياتِ البيئةِ والواقعيةِ وخصائصِهِ الجسميةِ تدعوه لأنْ يسلكَ الطريقَ الهابطَ ، وكلُّ معطياتِ البيئةِ ، وكلُّ خصائصِهِ الجسميةِ ، وكلُّ رغباته تصرفهُ عن الطريقِ الصاعدِ ، لأنّ فيه حُفراً ، وأكماتٍ ، وغباراً ، وجهداً عاليًا جداً ، فالإنسانُ إذّا تعاملَ مع الواقعِ فقط ، ومع خصائصِ جسمِهِ فقط ، ومع معطياتِ البيئةِ فقط لابد من أنْ يسلكَ الطريقَ الهابطَ ، لكنْ لو كُتِبَتْ على لوحةٍ عند مفترقِ الطريقين : " هذا



الطريقُ الهابطُ ينتهي بحفرةٍ مالها من قرارٍ ، فيها وحوشٌ كاسرةٌ ، وأنّ هذا الطريقَ الصاعدَ ينتهي بقصرٍ منيفٍ هو لمَن دخلَه ، ألا ينبغي أنْ يتخّذَ راكبُ الدراجةِ قراراً معاكساً ؟

الحقيقةُ أنّ هناك واقعاً محسوساً ، وشهواتٍ مستعرةً ، منها دنيا خضرةٌ نضرةٌ ، وامرأةٌ جميلةٌ ، وبيتٌ جميلٌ ، ومنصبٌ رفيعٌ ، وأشياءُ كثيرةٌ ، لكنْ حينما تقرأُ البيانَ الإلهيَّ لابد مِن أن تتخّذَ قراراً معاكساً ، وهذه هي القصةُّ كلهُّا ، هناك دنيا محدودةٌ ، وآخرةٌ لا تنتهي ،

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾

[الضحى : الآية 4 – 5.]

وقال :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ .

[الإنسان : الآية 27].

آيات كثيرة تبين أن الحقيقة هي الآخرة ، وأن السعادة الحقيقية هي الآخرة ، وأن أكبر خسارة يخسرها الإنسان حينما يخسر الآخرة ،

﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

[الشورى : من الآية 45].

فالدنيا محسوسةٌ ، والآخرة خبرٌ ، لأنّ الإنسانَ فطِرَ على أنه عجولٌ يريدُ الأشياءَ المحسوسةَ التي أمامه ، يريدُ ما هو قريبٌ منه ، وينصرفُ عن الشيءِ البعيدِ ، لو أنه اختارَ الأهدافَ البعيدةَ لاختارَ الآخرةَ ، ورضوانَ اللهِ عز وجل .

ما معنى أنّ الإنسانَ مخيرٌّ ؟ لو أنّ الإنسانَ لمجرّدِ أن يعصيَ اللهَ يعاقبهُ الله لم يكن مخيَّراً ، يمكنُ أنْ يعصيَه إلى أمدٍ طويلٍ ، ولا يحدثُ شيءٌ ! جسمُه في أتمِّ ــــ



صحّةٍ ، قلبهُ ينبضُ نبضاً طبيعياً ، وضغطُه مناسبٌ ، ويمكن أنْ يطيعَه إلى أمدٍ بعيدٍ ولا يرى شيئاً استثنائياً

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ .
[إبراهيم : الآية 42].

الدنيا حولَ المؤمنِ محسوسةٌ ، ترقصُ خضرةً نضرةً محببةً ، تتناغمُ مع شهواتهِ ونزعاتهِ وخصائصِ جسمِه ، والآخرةُ خبرٌ في الكتبِ السماويةِ .
عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)) .
[مسلم (2822) ، الترمذي (2559) ، وأحمد (7521) من رواية أبي هريرة .]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا ــ فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ ــ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))
[مسند الإمام أحمد (3017)] .

وفي المقابلِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) .
[البخاري (3072) ، مسلم (2824) ، الترمذي (3197)].

خُلِقَ الإنسانُ عجولاً ، وهي نقطةُ ضعفٍ فيه .
إذا عاشَ الإنسانُ الماضيَ فقط ، وأهملَ حاضرَه فهو غبيٌّ ، وإذا عاشَ حاضرَه كانت حياتهُ ردودَ أفعالٍ متأخرةً ، لكنّ الموفقَّ يعيشُ المستقبلَ ، وأكبرُ حدثٍ في المستقبلِ مغادرةُ الدنيا ، ماذا بعدَ الدنيا ؟



الخصيصةُ الرابعةُ في الإنسانِ الضعفُ :

إنّ اللهَ خلَقَه ضعيفاً ، قال تعالى :

﴿ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ .

[النساء : من الآية 28].

هذا من نقاطِ ضعفِ الإنسانِ ، فلو أنّ الله خَلَقَ الإنسانَ قوياً لاستغنى بقوّتِهِ فشقيَ باستغنائِه ، ولكنْ لأنّ الإنسانَ خُلِقَ ضعيفاً فإنه يفتقرُ في ضعفِه ، فيسعدُ بافتقارِه .
فالإنسانُ حينما يستغني عن اللهِ يميلُ إلى المعصيةِ ، والدليلُ :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى ﴾.

[العلق : الآية 6 – 7] .

والإنسانُ يتوهّمُ أنه مستغنٍ عن الله ، لكنه في قبضتِهِ ، والحقيقةُ أنّ في القرآنِ ملمحاً رائعاً ، هو أنّ كلمة (العبد) تجْمَعُ على عبيدٍ ، وعلى عبادٍ ، والفرقُ بينهما دقيقٌ ، عبدُ القهرِ يجُمَعُ على عبيدٍ

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت : من الآية 46].

وعبدُ الشكرِ يجُمَع على عبادٍ

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾

[الحجر : من الآية 42].

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ .

[البقرة : من الآية 186].



فالإنسان عبد شاء أم أبى لكنه عبد القهر ، شريانه التاجي وحركته بيد الله بثانية واحدة يفقد حركته ونطقه ، وبخثرة (جلطة) لا يزيد حجمها على رأس دبوس تقف في أحد شرايين الدماغ يفقد حركته ، فالإنسان في قبضة الله وقد خلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه ، فيسعد بافتقاره ، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه .

النقطة الدقيقة جداً : أن الإنسان أمامه امتحانان يمتحن بهما في اليوم عشرات المرات ، في كل مجال في حرفتك وبيتك وتربية أولادك وكسب مالك وإنفاق مالك وأداء مهماتك ، إذا قلت : أنا ، معتداً بخبرتك وقوّتكِ ومالِكِ تخلى اللهُ عنك ، وإذا قلت : الله ، تولاّك بحفظِه .

هذان الامتحانان وَرَدَا في القرآنِ ، امتحانُ بدرٍ وحُنين

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾

[آل عمران : من الآية 123] .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ .

[التوبة : من الآية 25] .

حينما نفهمُ أنّ أوامرَ الدينِ ضمانٌ لسلامتنا ، وليست حداً لحرّيتنا نكونُ قد وصلنا إلى الحقيقةِ .



المقوم الرابع : التشريع

01 - التشريع

02 - القرآن الكريم

03 - السنة النبوية المطهرة

04 - منهج التلقي



01 - التشريع

التشريع ومنهج التلقي

إنّ الفطرةَ و العقلَ مَلَكَتَانِ للإدراكِ البشريِّ ، وطريقانِ للمعرفةِ الإنسانيّةِ ، يكمِّلُ كلٌّ منهما الآخرَ لمعرفةِ الحقِّ والباطلِ ، وتمييزِ الخيرِ من الشرِّ ، والحسَنِ من القبيحِ .

العقلُ يحلِّلُ ، ويركِّبُ ، ويستنبطُ ، ويستدلُّ ، ويعتقدُ ، ويؤمنُ ، ويشكِّكُ ، ويغلبُ على ظنّه ، ويرفضُ ، وهذه كلّها محاكماتٌ عقليّةٌ ، والعقلُ مختصٌّ بها ، والنفسُ ترتاحُ ، و تتألّمُ ، وتقلقُ ، وتخافُ ، وتحبّ ، وتندفعُ ، وهذا نشاطٌ نفسيٌّ ، فالفطرةُ دليلٌ ، والعقلُ دليلٌ ، وإنهما يتعاونان ، ويتكاملان ، بل إنهما يجتمعان ليعرفَ الإنسانُ من خلالِهما الحقَّ ، ويكشفَ الباطلَ .

ولكنّ العقلَ لا يستطيعُ أن يُلزِمَ صاحبَه بالصوابِ ، فكم من إنسانٍ يتمتّعُ بأعلى ثقافةٍ ، ومع ذلك هو يدخِّنُ ، فالمعلومةُ وحْدها لا تكفي ، بل لا بد مِن إرادةٍ تدعِّم هذه المعلومةَ .

وأمّا الفطرةُ فقد تُطْمَسُ ، وقد تُشَوَّهُ ، وقد تمحقُها البيئةُ ، ما الذي بقيَ ثابتاً في حياةِ المسلمين ؟ إنه الوحيُ ، وحيُ السماءِ ، هذا الوحي الذي :

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

[فصلت : الآية : 42] .

هذا الوحيُ هو الحقُّ الصّرفُ ، وهو الميزانُ ، و هو القيمةُ المطلقةُ ، فلذلك أيّ جولةٍ للعقلِ وصلتْ إلى نتيجةٍ تتوافقُ مع الوحيين فقد أصابَ العقلُ ، وأيُّ نتيجةٍ وصلَ العقلُ إليها تخالفُ الوحيين فهي خطأٌ صارخٌ ، ولا مجالَ لقَبوله ، لأنّ الوحيَ مطلقٌ في أَحَقِّيتِه ، وأيُّ شيءٍ ترتاحُ له الفطرةُ المشوّهةُ يخالفُ الدينَ فهذا ليس من الفطرةِ السليمةِ ، بل هو مِن الفطرةِ التي شُوِّهَتْ ، وتغيَّرَتْ .



الكتابُ والسنّةُ إن نعتصمْ بهما فلنْ نضلَّ أبداً ، لكنّ العقلَ يُعِيننا على معرفةِ اللهِ من خلالِ خَلْقِه ، وإنّ الفطرةَ تُعَيننا على السيرِ في طريقِ اللهِ من خلالِ راحتِها لطاعةِ اللهِ ، واضطرابها من معصيةِ الله .

إنّ اللهَ جلّ جلاله كاملٌ كمالاً مطلقاً ، ودينهُ كاملٌ كمالاً مطلقاً ، قال سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

[المائدة : من الآية 3].

التمامُ عَدَدِيٌّ ، والكمالُ نوعيٌّ ، أيْ إنّ عددَ القضايا التي عالجَها الدِّينُ تامٌّ عدداً ، كاملٌ نوعاً .

هذا الدِّينُ دينُ اللهِ ، وحينما بيّنَ اللهُ سبحانه وتعالى أنّ هذا القرآنَ لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا من خَلفهِ ، وأنّ هذا الدينَ هو وحيٌ مِن اللهِ جلّ جلاله ، فلا يجوزُ أنْ نضيفَ عليه ، ولا أنْ نحذِفَ منه ، إنّنا إنْ أضفنَا عليه ما ليس منه نشأتْ فِرَقٌ ومذاهبُ ، ثم تعارضتْ ، وتنافستْ ، وصار بأسُها بينها ، وكان هذا سبباً لفُرقتِنا ، وتشرذمِنا ، ولو حَذَفنا منه لكان الضعفُ والتخلفُ وانهيارُ الحضارةِ .

وردَ في الأثر : ((ابنَ عُمَرَ ، دِينَكَ ، إِنَّهُ لَحْمُكَ وَدَمُكَ ، خُذْ عَنِ الَّذِينَ اسْتَقَامُوا ، وَلَا تَأْخُذْ عَنِ الَّذِينَ مَالُوا)) .

[ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (1/ 130)].

وقال ابنُ سيرين : " إنّ هذا العلمَ دينٌ ، فانظروا عمّن تأخذون دينَكم ".

[ذكره مسلم في مقدمته (1/ 14)].

إنّ قضيةَ الدِّينِ قضيةٌ مصيريّةٌ ، فو الذي نفسُ محمّدٍ بيده ما بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنةُ أو النارُ .



أضعُ بين أيديكم مثلاً منتزَعاً من الواقعِ ، أيُّ نبعٍ انظرْ إلى منبعِه الصافِي ، ثم انظرْ إلى مَصبِّهِ ، وقد جاءَته الروافدُ من كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ ، إلى أنْ أصبحتْ مياهُه سوداءَ .

هذا الدينُ العظيمُ ينبغي أنْ نعودَ إلى ينابيعِه الأولى ، وهذا هو التجديدُ بالمعنى الدقيقِ ، قد يتوهّمُ البعضُ أنّ التجديدَ في الدينِ أنْ نأتيَ بجديدٍ ، إنّ تجديدَ الدِّينِ له معنى خاصٌّ ، وهو أنْ تزيلَ عنه ما علِقَ به ممّا ليس منه .

وحينما تنحرفُ فرقةٌ ضالّةٌ عن جوهرِ الدينِ فإنها تؤلِّهُ الأشخاصَ ، وتخفِّفُ التكاليفَ ، وتعتمدُ النصوصَ الموضوعةَ والضعيفةَ ، وتتّجهُ إلى نزعةٍ عدوانيةٍ ، وهذه هي خصائصُ الفرقِ الضالّةِ في التاريخِ الإسلاميِّ ، (تأليهُ الأشخاصِ – تخفيفُ التكاليفِ – اعتمادُ النصوصِ الموضوعةِ والضعيفةِ – النزعةُ العدوانيةِ) .

أما حينما نحافظُ على جوهرِ الدِّينِ وأصولِه ، لا نزيدُ عليها ، ولا نحذفُ منها يكونُ هذا الدِّينُ سببَ رُقيِّنا وسعادتنا .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ ، يَحْمَدُ اللَّهَ ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)).

[النسائي (5892)].

إنّ من خصائصِ الدعوةِ الخالصةِ إلى اللهِ تعالى الاتباّعُ ، لأنّ الخالقَ كاملٌ كمالاً مطلقاً ، ومنهجُه كذلك ، فالذي يدعو إلى اللهِ بإخلاصٍ ينبغي أنْ يتبّعَ ، لا أنْ يبتدعَ ، ومن خصائصِها التعاونُ ، والاعترافُ بما عند الآخرين مِن فضلٍ ، لأنّ الداعيةَ حينما يحملُ همَّ المسلمين يتعاونُ معهم ، ولا يتنافسُ ، ويعترفُ لكلٍّ بفضلِه .

إذاً مِن صفاتِ الدعوةِ الخالصةِ إلى اللهِ الاتباّعُ ، والتعاونُ ، والاعترافُ بفضلِ الآخرين ، لذلك قالوا : " اتّبعْ لا تبتدعْ ، اتّضعْ لا ترتفع ، الورعُ لا يتسَع " .



ولكن قد تكون هناك دعوةٌ إلى الذّاتِ مغلفةٌ بدعوةٍ إلى الله ، هذه الدعوةُ مِ ن خصائصِها الابتداعُ لا الابتاّعُ ، التنافسُ لا التعاونُ ، إنكارُ ما عند الآخرين .

وما مِن عملٍ يتذبذبُ بين أنْ يكونَ عملاً عظيماً مقدساً كأنْ يكونَ صنعةَ الأنبياءِ ، وأن يكونَ عملاً يضعفُ ، ويصغرُ حتى يكون عملاً مبتذلاً لا يستحقُّ إلا ابتسامةً ساخرةً كالدعوةِ إلى اللهِ تعالى .

إذا التشريع هو أهم مقومات التكليف ، وهم مجموعة الأوامر والنواهي التي وردت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفي الصفحات الآتية سنقف عند مصدري التشريع وقفة متأنية.

02 - القرآن الكريم

القرآن هدى وبيان ، وموعظة وبرهان ، ونور وشفاء ، وذكر وبلاغ ، ووعد ووعيد ، وبشرى ونذير ، يهدي إلى الحق ، وإلى الرشد ، وإلى صراط مستقيم ، يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، فيه تبيان لكل شيء ، وهو شفاء لما في الصدور.

جاء في الحديثِ الشريفِ عَنْ الْحَارِثِ قَالَ : مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ ؟ قَالَ : وَقَدْ فَعَلُوهَا ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ ، فَقُلْتُ : مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : كِتَابُ اللَّهِ ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى



فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) .

[الترمذي (2906) ، الدارمي (3331) ، ابن أبي شيبة في المصنف (30007)].

وهو مصدرٌ رئيسٌ لمعرفةِ الله عز وجل ، فالقرآنُ كلامُه ، ومن خلالِه نعرف اللهَ عن طريقِ التدبُّرِ ؛ والسماواتُ والأرضُ خَلْقُه ، ومن خلالهما نعرف اللهَ عن طريقِ التفكّرُ ، والحوادثُ أفعالُه ، ومن خلالِها نعرف اللهَ عن طريقِ النظرِ ، والتأمّلِ .

حينما يقتني أحدُنا آلةً بالغةَ التعقيدِ ، غاليةَ الثّمنِ ، ذاتَ نفعٍ عظيمٍ تراه حريصاً حرصاً لا حدودَ له على اقتناءِ الكُتيِّبِ الذي تصدرُه الجهةُ الصانعةُ ، والذي يتضمَّنُ طريقةَ الاستعمالِ ، وأسلوبَ الصيانةِ ، فهو حريصٌ على اقتناءِ هذا الكُتيِّبِ ، وعلى ترجمتِه وفهْمِه ، وتنفيذِ تعليماتِه بدقّةٍ بالغةٍ ، وهذا الحرصُ نابعٌ من حرصِه على سلامةِ هذه الآلةِ ، وعلى مستوى مردودِها .

وهذا الإنسانُ بجسدِه الذي يُعدُّ أعقدَ آلةٍ في الكونِ ، ففي خلاياه وأنسجتِه ، وفي أعضائِه وأجهزتِه من الدقّةِ والتعقيدِ والإتقانِ ما يعجزُ عن فهمِ بنيتِها وطريقة عملِها أعلمُ العلماءِ ، وفي هذا الإنسانِ نفسٌ تعتلجُ فيها المشاعرُ والعواطفُ ، وتصطرعُ فيها الشهواتُ والقيمُ والحاجاتُ والمبادئُ ، حيث يعجزُ عن تحليلِها وتفسيرِها أعلمُ علماءِ النفسِ ، وفيه عقلٌ يحوي من المبادئ والمسلماتِ والقُوى الإدراكيةِ والتحليليةِ والإبداعيةِ ما أَهَّلَهُ ليكونَ سيّدَ المخلوقاتِ .

والآن ألاَ يحتاجُ هذا المخلوقُ المكرَّمُ إلى كتابٍ مِن خالقِه ومربّيه ومدبّرِه ومسيّرِه ، يبيّن له فيه الهدفَ من خَلقِه ، والوسائلَ الفعّالةَ التي تحقّقُ هذا الهدف ؟



ألا يحتاجُ هذا المخلوقُ المكرّمُ إلى كتابٍ فيه منهجٌ يسيرُ عليه ، ويضبطُ ، ويصحّحُ حركاتِه ونشاطاتِه من الخللِ والعبث ؟

ألا يحتاجُ هذا المخلوقُ البديعُ في خَلقه إلى كتابٍ فيه مبادئُ سلامته ؛ سلامةِ جسدِه من العطبِ ، وسلامةِ نفسِه من التردِّي ، وسلامةِ عقلِه من التعطيلِ والتزويرِ .

ألا يحتاجُ هذا المخلوقُ المكرّمُ إلى كتابٍ فيه مبادئُ سعادتِه فرداً ومجتمعاً في الدنيا والآخرةِ ؟

إنه القرآنُ الكريمُ الذي لا يقِلُّ في عظمةِ إرشادِه وتشريعِه عن عظمةِ إ يجادِ السماواتِ والأرض ، قال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

[الأنعام : من الآية 1].

وقال :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ﴾ .

[الكهف : الآية 1].

فكما أنّ اللهَ يُحمَدُ على نعمةِ إيجادِ السماواتِ والأرضِ ، كذلك يُحمَدُ بالقدْرِ نفسِه على نعمةِ الإرشادِ ،إرشادِ الإنسانِ من خلالِ القرآنِ إلى طريقِ سلامتِه وسعادتِه الأبديّةِ.

لقد قدَّم اللهُ تعالى تعليمَ القرآنِ على خَلقِ الإنسانِ تقديماً رُتبياً لا تقديماً زمنياً ، لأنه لا معنى لوجودِ الإنسانِ على سطحِ هذه الأرضِ ما لم يكن له منهجٌ يسيرُ عليه ، فقال جل مِن قائلٍ :

﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ ﴾ .

[الرحمن : الآية 1 – 3].



والله جل وعلا يشهدُ للإنسانِ أنّ هذا القرآنَ كلامُه ، ومن خلالِ الأحداثِ التي يقدّرها اللهُ له أو عليه ، وعندئذٍ يشهدُ القرآنُ للإنسانِ أنّ هذا الذي أُنزلَ عليه القرآنُ هو رسولُ الله ، قال تعالى :

﴿ لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾
[النساء : الآية 166] .

وقال سبحانه :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .
[النحل : الآية 97].

فإذا آمنَ الإنسانُ كما ينبغي ، وعملَ صالحاً في صدقٍ وإخلاصٍ أذاقه اللهُ طعمَ الحياةِ الطيبةِ ، من طمأنينةٍ ، واستقرارٍ ، وتيسيرٍ ، وتوفيقٍ ، وسعادةٍ ، وحُبورٍ ، عندئذٍ يشعر من خلالِ الحياةِ الطيبةِ التي ذاقها مِصداقاً لوعدِ الله ، أنّ اللهَ ج لّ جلاله ، شهدَ له بأنّ هذا القرآنَ كلامُه ، وأنّ هذه الحياةَ الطيبةَ مِن فعْلِه ، قدّرها له تحقيقاً لوعدِه ، وحينما يتطابقُ فعْلُ اللهِ مع ما في القرآنِ يقومُ الدليلُ القطعيُّ على أنّ القرآنَ كلامُ الله .
دليلٌ مقابلٌ : قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ .
[طه : الآية 124] .

فمن أعرضَ عن ذكرِ الله ، والقرآنُ هو ذكرُ الله ، وهَجَرَه ، واتّخذه وراءه ظِهرياً ، واستحلّ محارمَه ، ولم يعبأْ بأمرِه ونهيه ، ووعدِه ووعيدِه أذاقه اللهُ طعمَ المعيشةِ الضنكِ ، من خوفٍ ، وقلقٍ ، وضيقٍ ، وشدّةٍ ، وتعسيرٍ ، وإحباطٍ ، وشقاءٍ ، وضياعٍ ،



عندئذٍ يشعرُ من خلالِ هذه المعيشةِ الضنكِ التي ذاقها مصداقاً لوعيدِ اللهِ ، أنّ اللهَ شهدَ له بأنّ هذا القرآنَ كلامُه ، وأنّ هذه المعيشةَ الضنكَ م ن فعْلِ اللهِ قدّرها عليه تحقيقاً لوعيدِه .

العينُ مهما دقّتْ صنعتُها ، ومهما أُحكمتْ أجزاؤُها ، ومهما ارتقتْ وظائفُها ، فلا تستطيعُ أنْ تبصرَ الأشياءَ إلاّ بنورِ الشمسِ ، والعقلُ مهما كَبُرَ ورجحَ ، ومهما تعدّدتْ وظائفُه ، ومهما دقّت محاكمتُه ، ومهما نما إبداعُه فلا يستطيعُ أنْ يدركَ الحقائقَ إلا بنورِ اللهِ ، والقرآنُ هو نورُ اللهِ ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ .

[النساء : الآية 174] .

وحينما يستنيرُ المؤمنُ بنورِ اللهِ فلنْ يضلَّ عقلُه ، ولن تشقى نفسُه ، قال تعالى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ .

[طه : الآية 123].

وكيف يضلُّ امرؤٌ يقرأُ القرآنَ ، والقرآنُ يقدِّمُ له تفسيراً صحيحاً لحقيقةِ الكونِ والحياةِ والإنسانِ مِن عندِ مكوِّنِ الأكوانِ ، وواهبِ الحياةِ ، وخالقِ الإنسانِ ؟

فالسماواتُ والأرضُ خُلقت بالحقِّ ، وهو الثباتُ والسموُّ ، ولم تُخلقْ باطلاً ، ولا لعباً ؛ وهما الزوالُ والعبثُ .

والسماواتُ والأرضُ مسخَّرةٌ للإنسانِ تسخيرَ تعريف وتكريمٍ من أجلِ أنْ يؤمنَ ويشكرَ .

والحياةُ الدنيا دارُ ابتلاءٍ ، وانقطاعٍ ، وعملٍ ، والآخرةُ دارُ جزاءٍ ، وخلودٍ ، وتشريفٍ .



والحياةُ الدنيا كما وَصفَها القرآنُ حياةٌ دنيا ، وليست عُليا ، وهي لهوٌ ولعبٌ ، وزينةٌ وتفاخرٌ وتكاثرٌ ، وجمعٌ ، والآخرةُ خيرٌ وأبقى ، وهي دارُ القرارِ ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾.

[القصص : الآية 60- 61].

والإنسانُ لم يُخلَقْ عبثاً ، ولن يُتركَ سُدىً ، وهو على نفسِه بصيرةٌ ، ولو ألقى معاذيرَه .

وإنه المخلوقُ المكرّمُ الذي خَلَقَه اللهُ في أحسنِ تقويمٍ ، وكرّمه أعظمَ تكريمٍ ، حملَ الأمانةَ التي أشفقتْ مِن حملِها السماواتُ والأرضُ ، مع أنّ الإنسانَ خُلِق ضعيفاً ، وخُلق عجولاً ، وخُلق هلوعاً ، إذا مسَّه الشرُّ كان جزوعاً ، وإ ذا مسّه الخيرُ كان منوعاً ، إلا المصلّين ، وأن ليس لهذا الإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه يوم القيامةِ الجزاءَ الأوفى ، وهو يفلحُ ، ويفوزُ إذا أطاعَ الله ورسوله ، وتزكّى ، وذكر اسمَ ربّه فصلى ، ولا ينفعه يومَ القيامةِ مالٌ ، ولا بنونَ إلاّ مَن أتى
الله بقلبٍ سليم ، وأنّ الإنسان لفي خسرٍ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحقِّ ، وتواصوا بالصبرِ .

وكيف يضلُّ امرؤٌ يقرأُ القرآنَ ، والقرآنُ يبيّن له أنه لا إله إلا اللهُ ، وهو غالبٌ على أمرِه ، ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون ، وأنه في السماءِ إلهٌ معبود وفي الأرض إله معبود ، وأنه إليه يُرجع الأمُر كلُّه ، وأنه على كل شيءٍ وكيلٌ ، وأنه يحكمُ ولا معقب لحكمه أبدًا ، وأنه لا يشرك في حكمِه مخلوقًا أحداً ، وأنه ما من دابّة إلاَ هو آخذٌ بناصيتها ، وأنه ما يفتح للناسِ من رحمةٍ فلا ممسكَ لها ، وما يُمسك فلا مُرسل له من بعده ، وأنه لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم ؟

ومن اهتدى بهدي القرآنِ لا يضلّ عقلُه ، ولا تشقى نفسُه ، وكيف تشقى نفسُه وتحزنُ ، وقد منحَه اللهُ نعمةً هي أثمنُ ما في الحياةِ النفسيةِ ، ألا وهي نعمةُ الأمنِ ، تلك النعمةُ



التي عزّتْ على كثيرٍ من الناسِ ، فهو حينما آمنَ بالله وحده ابتعدَ عن الشركِ الجلي والخفي ، وحينما ابتعد عن الشركِ ابتعد عنه العذابِ النفسيّ ، قال تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ .

[الشعراء : الآية 213].

وحينما آمن باللهِ وحْده ، وأنّ الأمرَ كلَّه راجعٌ إليه ؛ حملَه إيمانُه هذا على طاعتِه ، وتركِ الإساءةِ إلى خَلْقِه ، عندئذٍ استحقّ نعمةَ الأمنِ ، قال تعالى :

﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

[الأنعام : الآية 81 – 82].

وكيف تشقى نفسُ قارئِ القرآنِ وتحزنُ ، وهي تتلو قولَه تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ؟

[الجاثية : الآية 21].

وهل مِن طمأنينةٍ تنعمُ بها النفسُ أعظمُ مِن أنْ يؤكِّدَ لك خالقُ الكونِ أنّه لن يضيّعَ عليك إيمانَك ، ولا عملَك الصالحَ ، وأنه لن تكونَ حياتُك كحياةِ عامّةِ الناسِ الذين أعرضوا عن ذكْرِ ربّهم ، فاجترحوا السيئاتِ ، وتاهوا في الظلماتِ ؟



وكيف تشقى نفسُ قارئِ القرآنِ وتحزنُ ، وهي تتلو قولَه تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ .

[فصلت : الآية 30 – 32] .

وهل مِن شعورٍ أشدُّ تدميراً للنفسِ من الخوفِ ؟ فأنت من خوفِ المرضِ في مرضٍ ، وأنت من خوفِ الفقرِ في فقرٍ ، وتوقُّعُ المصيبةِ مصيبةٌ أكبرُ منها .

وهل من شعورٍ أشدُّ رضىً للنفسِ من الندمِ والحزنِ على ما فات ؟ فحينما يُفاجَأُ الإنسانُ بدنوِّ الأجلِ يُصعقُ ، ويقولُ :

﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾

[الزمر : من الآية 56].

و﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾

[الفجر : من الآية 24].

و ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾

[الفرقان : من الآية 27].

و﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾.

[الفرقان : من الآية 28].



لكنّ القرآنَ يُطمئنُ المؤمنين الذين آمنوا بالله ، واستقاموا على أمرِه بألاّ خوفٌ عليهم في الدنيا ، لأنّ اللهَ هو وليُّهم وناصرُهم ، ويدافع عنهم ، ويهديهم سواءَ السبيلِ ؛ ولا هم يحزنون على فراقِها ، لأنّ المؤمن ينتقلُ بالموتِ من ضيقِ الدنيا إلى سَعةِ الآخرةِ ، كما ينتقل الوليدُ من ضيقِ الرَّحمِ إلى سَعةِ الدنيا .

وكيف يقعدُ المؤمنُ عن استردادِ حقِّه المغتصبِ ، واللهُ تعالى يقول :

﴿ ولَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وعَزَّرْتُمُوهُمْ وأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ولَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

[المائدة : الآية 12].

وقال :

﴿ ومَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ولِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ومَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[الأنفال : الآية 10].

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

[آل عمران : الآية 160] .

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

[محمد : الآية 7].



وكيف يقعدُ المؤمنُ عن استردادِ حقِّه المغتصبِ ، واللهُ عز وجل يخاطبُ المؤمنين الصادقين في كتابِه بقولِه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

[الأنفال : الآية 65].

وبقوله :

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

[النساء : الآية 104].

ذكر الحافظُ محمدُ بنُ نصرٍ المروزيِّ في جزءِ قيامِ الليلِ ، عن الأحنفِ بن قيسٍ أنه كان يوماً جالساً فعرضتْ له هذه الآيةُ :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

[الأنبياء : الآية 10].

فانتبه فقال :عليَّ بالمصحفِ لألتمسَ ذِكري اليومَ ، حتى أعلمَ مَن أنا ، ومن أشبهُ ؟ يعني أنه لما علِمَ أنّ القرآنَ قد ذكرَ جميعَ صفاتِ البشرِ ، وبيّن طبقاتِهم ومراتبَهم أراد أنْ يبحثَ عن نفسِه ، في أيّ الطبـقات ، وفي أيّ المراتبِ هو ؟ فنشرَ المصحفَ ، وقرأَ ، فمرَّ بقومٍ :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ .

[الذاريات : الآية 17].



ومرّ بقومٍ :

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.
[السجدة : الآية 16] .

ومرَّ بقومٍ :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.
[[آل عمران : الآية 134] .

ومرَّ بقومٍ :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .
[الحشر : الآية 9].

فوقف الأحنفُ ، ثم قال : اللهم لستُ أعرفُ نفسي هاهنا ، أيْ : لم يجدْ هذه الصفاتِ في نفسِه ، حتى يَعُدَّ نفسَه من هؤلاء ، ثم أخذَ الأحنفُ السبيلَ الآخرَ ، فمرّ بالمصحفِ على قومٍ :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.
[الصافات : الآية 35].

ومرَّ على قومٍ يُسألون :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾
[المدثر : الآية 42 – 48].



فوقفَ الأحنفُ ، وقال : اللهم إني أبرأُ إليك من هؤلاءِ ، فما زالَ يقلِّبُ ورقَ المصحفِ ، ويلتمسُ في أيّ الطبقاتِ هو حتى وقعَ على هذه الآيةِ :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[التوبة : الآية 102].

فقال : أنا من هؤلاء .. ولعله قالها تواضعاً .. فإذا قرأ أحدُنا القرآنَ فلينظرْ موضعَ نفسِه في كتابِ الله .

في السُّنّةِ النبويّةِ المطهّرةِ أحاديثُ صحيحةٌ بشأنِ القرآنِ ، فعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ)) .

[البخاري (4739)].

وعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)).

[مسلم (817) ، الدارمي (3365)].

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ)) .

[البخاري (4653) ، مسلم (798)].

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْأُتْرُجَّةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتمْرَةِ ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ ، وَلَا رِيحَ لَهَا ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ ،وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ ،طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا)).

[البخاري (4732) ، الترمذي (2865) ، أبو داود (4829)].



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ)).

[البخاري (4737) ، مسلم (815) ، الترمذي (1936)] .

ومن حديثٍ موجَّهٍ لسيّدِنا معاذٍ رضي الله عنه : ((يَا مُعَاذُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَيَّدَهُ الْقُرْآنُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِهِ ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَهْلِكَ فِيمَا يَهْوَى)).

[أبو نعيم في الحلية (26/1) ، الطبراني في الأوسط (8317) عن معاذ].

وقد ورد عنه ﷺ أنه : ((لاَ يَحْزَنُ قَارِئُ الْقُرْآنِ ، وَلاَ يُعَذِّبُ الله قَلْباً وَعَى الْقُرْآنَ ، وَمَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ مَتَّعَهُ الله بِعَقْلِهِ حَتَّى يَمُوتَ)) .

[فيض القدير (114/6)] .

ويقول ﷺ أيضاً : ((اِقْرَأِ الْقُرْآنَ مَا نَهَاكَ ، وَإِنْ لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَؤُهُ)).

[مسند الشهاب (392) عن عبد الله بن عمرو ، انظر مجمع الزوائد (184/1)].

ويقول ﷺ ((وَمَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ)).

[الترمذي (2918) عن صهيب].



03 - السنة النبوية المطهرة

إنّ أناسًا كثيرين يزعمون بجهلٍ أو بمكرٍ أنّ القرآنَ يُغنِي عن السّنّةِ ، وأنّ اللهَ جعله تبياناً لكلّ شيءٍ ، وأنّ القرآنَ حُفِظَ من التبديلِ ، والسنةَ لم يُضمنْ لها هذا الحفظُ ، لقد أُلِّفت كتبٌ كثيرةٌ ، وطُرِحت آراءُ خطيرةٌ ، مفادُها أنه ينبغي أن نستغنيَ بالقرآنِ عن السنةِ .

إنّ السنّةَ النبويةَ الشريفةَ هي ما صحّ عن النبي ﷺ من أقوالٍ ، وما أُثِرَ عنه من أفعالٍ ، وما سجِّل من إقرارٍ ، فهي أقوالٌ وأفعالُ وإقرارُ ، وكلّها من السنةِ النبويةِ ، فإذا كان القرآنُ المصدرَ الأولَ للشريعةِ ، فالسنةُ هي المصدرُ الثاني لها ، والسنةُ هي البيانُ النظريُّ ، والتطبيقُ العمليُّ للقرآنِ الكريم .

والقرآنُ الكريمُ بمنزلةِ الدستورِ الذي فيه الأصولُ والقواعدُ الإلهيةُ الأساسيةُ ، التي لابد منها لتوجيهِ الحياةِ الإسلاميةِ ، وهدايةِ البشريةِ للتي هي أقومُ ، أمّا السنةُ فهي المنهاجُ النبويُّ الذي يفصِّلُ م ا أَجْمَلَ هذا الدستورُ ، ويخصِّصُ ما عمّمه ، ويقيِّدُ ما أطلَقَه ، ويضعُ له الصورَ التطبيقيّةِ من حياةِ رسولِ الله ﷺ ، وسيرتِه الجامعةِ .

والقرآنُ الكريمُ نفسُه يقرِّر أنّ مهمةَ رسولِ الله ﷺ أنْ يبيّنَ ما أنزلَ اللهُ مِن الكتابِ ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

[النحل : الآية 43 – 4].

وفي آيةٍ أخرى فيها حصرٌ وقصرٌ ، يقول الله عز وجل :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

[النحل : الآية 64].



ولولا السنةُ لما عرفْنا كثيراً من أحكامِ الإسلامِ ، من عباداتٍ أو معاملاتٍ ، ومَن قرأَ كتبَ الفقهِ الإسلاميِّ بمختلفِ مذاهبِه وجدَ بشكلٍ واضحٍ جداً أنّ معظمَ الأحكامِ مأخوذةٌ من سنةِ النبيّ عليه الصلاةُ والسلامُ ، لقد أمرَ القرآنُ بالصلاةِ ، ولكنْ لم يبيِّن عددَ الصلواتِ ، ولا مواقيتَها ، ولا كيفيتَها ، ولا أنواعَها ، من فرضٍ ـــ ونفلٍ ، ولكنّ السنةَ المطهرةَ هي التي تولَّت تفصيلَ ذلك .

وأمرَ القرآنُ بالزَّكاةِ ، ولكنْ لم يبيِّن كلَّ أنواعِ المالِ الذي تجب فيه الزكاةُ ، ولا النِّصابَ اللازمَ لوجوبِ الزكاةِ ، ولا المقدارَ الواجبَ ، ولا زمنَ الوجوبِ ، ولكنّ السنةَ النبويةَ المطهرةَ هي التي حدَّدتْ ذلك كلّه ، وكذلك الصومُ والحجُّ والعمرةُ ، وشؤونُ المعاملاتِ كلُّها بيّنتْها السنةُ النبويةُ المطهرةُ ، فمن أرادَ أن يستغنيَ بالقرآنِ عن السنةِ فقد ألغى الفقهَ الإسلاميَّ وضيَّعَ معظمَ الدِّينِ .

إنّ هذا الزعمَ مِن أنه يمكنُ أن نستغنيَ بالقرآنِ عن السنةِ مخالفٌ للقرآنِ نفسِه ، فقد أمرَ القرآنُ بطاعةِ الله ، وطاعةِ رسولِه ﷺ معاً ، والآيةُ الكريمةُ :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

[النور : الآية 54] .

والآيةُ الثانيةُ :

﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

[الحشر : من الآية 7].

فالذي يستغني بالقرآنِ عن السنةِ يستغني عن آياتِ القرآنِ الكريمِ نفسِه ؛ لأنّ القرآنَ الكريمَ يأمرُنا أن نأخذَ ما آتانا النبيُّ ﷺ ، وأن ننتهيَ عما نهانا عنه ، والقرآنُ الكريمُ يأمرنا أن نطيعَ اللهَ ، وأن نطيعَ الرسول ﷺ ، فاللهُ سبحانه وتعالى نطيعُه في كتابِه الكريمِ ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام نطيعُه في سنّتِه ،



وحينما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

[النساء : الآية 59 .]

، نردُّه إلى اللهِ أيْ : إلى كتابه الكريم ، ونردُّه إلى الرسولِ أي : إلى سنّتهِ المطهرةِ .

بل إنّ القرآنَ الكريمَ قد عدَّ طاعةَ الرسولِ ﷺ من طاعةِ اللهِ ، فقال تعالى :

﴿ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ .

[النساء : الآية 80].

والقرآنُ الكريمُ حذّرَ أشدَّ التحذيرِ من مخالفةِ أمرِ النبيِّ ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

[النور : الآية 63].

بل إنّ القرآنَ الكريمَ نفَى الإيمانَ كلياً عمَّن لم يرضَ بحكمِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

[النساء : الآية 64 – 65 .(3) الترمذي (2664) ، وأبو داود (4604) ، وابن ماجة (12)].

آياتٌ كثيرةٌ جداً قطعيةٌ الدّلالةِ ، واضحةٌ وضوحَ الشمسِ تبيّنُ أنه لابد من طاعةِ اللهِ ، وطاعةِ رسوله ؛ لأن النبيَّ عليه الصلاة والسلام بيّن ما أجْمَلَه القرآنُ ، وقيّد ما



أطلَقه القرآنُ ، وخصّصَ ما عمّمه القرآنُ ، بل إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى بيَّن أيضاً في القرآنِ الكريمِ أن مهمّةَ النبيَّ ﷺ أن يبيِّنَ ما أُنزِلَ إليه من أحكامِ القرآنِ الكريمِ .

أما السنّةُ نفسُها فقد حذّرتْ من هذا الاتّجاهِ ، وكأنّ اللهَ جل جلاله أَعْلَمَ نبيَّه بما سيكونُ من هذه الفتنةِ ، فتنةِ نبذِ السنةِ ، والاكتفاءِ بالقرآنِ ، بل لعلَّ هذا الحديثَ من دلائلِ نبوةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء في حديث ا لْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ))[3] .

هذا الزعمُ مخالفٌ لإجماعِ الأمّةِ في جميعِ مذاهبِها ، وفي مختلفِ عصورِها ، فقد كانت الأمّةُ كلُّها ترجعُ إلى السنةِ مع القرآنِ .

أما حجّتُهم الثانيةُ ، مِن أنّ القرآنَ حُفظَ من التبديلِ دونَ السنةِ ، فقد بيِّنَ الإمامُ الشاطبيُّ أنّ حفظَ القرآنِ يتضمّنُ حفظَ السنةِ .

إنك إنْ أصدرتَ قانوناً ، ثم أَتْبَعْتَه بمرسومٍ تفصيليٍّ ، إن لم تحفظ المرسومَ فما قيمةُ هذا القانونِ ؟

إذا كان اللهُ جل جلاله قد كلَّف النبيَّ عليه الصلا ة والسلام أن يبيِّنَ أحكامَ القرآنِ ، فإنْ حفِظَ اللهُ كتابَه ، ولم يحفظْ سنة نبيِّه كأنّ كتابَه لم يُحفظْ ، يقول الإمام الشاطبي : من مقتضياتِ حفظِ اللهِ لكتابه أن يحفظَ سنّةَ نبيِّه .

بل إنّ من لوازمِ حفظِ اللهِ للقرآنِ الكريمِ حفظَه لسنةِ النبيّ عليه الصلاة والسلام ، والحفظُ لا يعني ألاّ تجريَ محاولةٌ للتغييرِ والتبديلِ ، ولكنه يعني ألاّ تنجحَ هذه المحاولاتُ .

أما كيف يحفظُ اللهُ سنة نبيه ، فقد بيّن هذا النبي عليه الصلاة والسلام ، وذكر هؤلاءِ الذين يحفظون السنة : ((يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ)) .

[سنن البيهقي الكبرى (10/ 209) بإسناد صحيح] .



إنّ اللهَ جل جلاله أمدَّ هذه الأمّةَ رجالاً أشدّاء ، أقوياءَ في الحقِّ ، بـذلوا أعمارَهم في سبيلِ حفظِ السنةِ ، ينفون عنها تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المبطلين ، وتأويلَ الجاهلين .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى ، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً ، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ)) .

[مسلم (654) ، وابن ماجة (777)].

فمَن تركَ سنةَ النبيّ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ؛ لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى أمَرَنا أنْ نأخذَ منه ، وأن ننتهيَ عما نهانا عنه .

ولسيدنا سعد بن أبي وقاص كلمةٌ رائعةٌ ، يقول هذا الصحابيُّ الجليلُ : " ثلاثةٌ أنا فيهنّ رجلٌ ، وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس ، ما صلّيتُ صلاةً فشغلتُ نفسي بغيرِها حتى أقضيَها ، ولا سِرتُ في جنازةٍ فحدثتُ نفسي بغيرِ ما تقولُ حتى أنصرفَ منها ، ولا سمعتُ حديثاً من رسولِ الله ﷺ إلا علمتُ أنه حقٌّ من الله " .

واليومَ كلّما تقدّمَ العلمُ كشفَ عن جانبٍ من تحدّياتِ السنةِ النبويةِ ، لأن هذا الذي قاله النبيُّ ﷺ لم ينطقْ به عن الهوى ، إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحَى .

وبعد أن تحدثنا عن التشريع كمقوم من مقومات التكليف وعن ركنييه الأساسيين الكتاب والسنة ، لا بد من منهج التلقي الذي يعيننا على أخذ الصحيح وترك الباطل وفق ضوابط مستمدة أصلا من الكتاب والسنة .



04 - منـهج التلقي

يتلقَّى الإنسانُ خلالَ حياته مقولاتٍ ــ ولا نقول حقائقَ ــ لا تعدّ ولا تحُصى ، وهذه المقولاتُ والطّروحاتُ التي يسمعها الإنسانُ من خلالِ علاقاته الاجتماعيةِ ونشاطاته المتعدّدةِ ، هل يقبلُها كلّها أم يردّها ؟ إنْ قبلها فبأيّ منهجٍ يقبلُها ؟ وإن ردّها كيف يردّها ؟ هل هناك من منهجٍ علميٍّ يكون حكماً أو مقياساً لما ينبغي أن نقبلَ ، ولما ينبغي أن نرفضَ ؟ فقد مضى على ظهورِ هذا الدينِ العظيمِ ألفٌ وخمسمئة عامٍ تقريباً ، وفي هذه الأعوامِ المديدةِ طُرحَتْ في حقلِ الدينِ طروحاتٌ لا تعدّ ولا تحصى ، أنا لكوني مسلمًا هل أقبلُها ؟ أم أرفضها ؟ كيف أقبل الذي أقبله ؟ وكيف أرفضُ الذي أرفضهُ ؟ لابد من منهجٍ يعُدّ مقياساً ، فحينما يتاجرُ تاجر في الأقمشةِ لا بد له من مقياسٍ يقيسُ به أطوالَ القماشِ .

إنّ منهجَ التلقّي ومنهجَ البحثِ مهمٌّ جداً في حياةِ المسلمين ، فهو أهمّ من مفرداتِ العلمِ نفسِه ، فبمنهجِ التلقّي تتعلمّ كيف تصطادُ السمكَ ، أمّا من دونِ منهجِ التلقّي قد تأكلُ السمكَ مرةً واحدةً .

وهذا المنهجُ له معالمُ وبنودٌ .

البندُ الأول : الحقُّ دائرةٌ تتقاطعُ فيها أربعةُ خطوطٍ :

تُعرَّفُ الحقيقةُ العلميةُ بأنها : حقيقةٌ مقطوعٌ بصحتها ، تطابقُ الواقعُ ، عليها دليلٌ

(مقطوع بها) : أي يقينيٌّ مئة في المئةِ ، لو لم تكن يقينياً لكانت ظنّاً ، أو شكّاً ، أو وهماً ، فالوهمُ نسبْتُه ثلاثون في المئة ، ونسبةُ الشكِّ خمسون في المئة ، أمّا الظنُّ فتسعون في المئة ، لكنّ الحقيقةَ العلميةَ لا تقبلُ الشكَّ ، ولا الوهمَ ، ولا الظنَّ ، لذا ينبغي أن يكونَ مقطوعاً بها .

(تطابقُ الواقعَ) : فالواقعُ محكٌّ للحقيقةِ ، ولو لم تطابق الواقعَ لكانت جهلاً

(عليها دليلٌ) : لو ألْغَينا الدليلَ لكان هذا الذي نعتقده تقليداً ، لأنّ الله عز وجل يقول : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

[محمد : من الآية 19].



ولمْ يقل : فقل ، قال : ﴿ فَاعْلَمْ ﴾ ، فينبغي أنْ تنفيَ عن معتقداتنا ما كان وهماً ، أو شكاً ، أو ظناً ، أو جهلاً ، أو تقليداً.

فالنقلُ وحيُ الله ، والكونُ خَلقُ اللهِ والعقلُ مقياسٌ أودعه اللهُ فينا، والفطرةُ مقياسٌ نفسيٌّ أودعه اللهُ فينا ، والواقعُ مِن خَلْقه ، فإذا كانت كلُّ هذه المقاييسِ التي نتعاملُ معها مِن عندِ اللهِ عزّ وجل ، أيْ: مِن أصلٍ واحدٍ فينبغي أن تكونَ متفقّةً فيما بينها .

نحن أمامَ حقيقةٍ مقطوعٍ بها ، يؤكّدُها الواقعُ ، عليها دليلٌ ، هذه الحقيقةُ تمثّل جانباً أساسياً من جوانبِ الدينِ ، بل إنّ الحقيقةَ التي يعتمدها الدينُ هي حقيقةٌ جاء بها النقلُ الصحيحُ ، وأقرّها العقلُ الصريحُ ، وارتاحت إليها الفطرةُ السليمةُ ، وأكّدها الواقعُ الموضوعيُّ .

فللحقيقةُ دائرةٌ تتقاطعُ فيها أربعةُ خطوطٍ : خطُّ النقلِ الصحيحِ، وخطُّ العقلِ الصريحِ ، وخطُّ الفطرةِ السليمةِ ، وخطُّ الواقعِ الموضوعيّ ، النقلُ ينبغي أنْ يكونَ صحيحاً ، والعقلُ ينبغي أن يكون صريحاً ، لا أنْ يكونَ تبريرياً في خدمةِ شهواتِ الإنسانِ ومصالحِه ، والفطرةُ قد تكونُ مطموسةً ، والواقعُ قد يكون مزوّراً .

البندُ الثاني : المحسوساتُ ، والمعقولاتُ ، والإخباريّاتُ :

الإنسانُ له حواسّ ، وهناك معرفةٌ عن طريقِ الحواسِ نسمّيها المعرفةَ الحسيّةَ ، أو اليقينَ الحسيَّ ، والبشرُ وغيرُ البشرِ في هذا المعرفةِ تقريباً سواءٌ ، لكنّ اللهَ سبحانه وتعالى كرّم الإنسانَ بجوهرةٍ هي أعقدُ ما في الكونِ ، إنها العقلُ ، هذا العقلُ أداةُ معرفةِ اللهِ ، إلاّ أنّ من خصائصِهِ أنه لا بدّ له من شيءٍ محسوسٍ يبني عليه شيئاً غيبياً ، فأيّ شيءٍ غابت عينُهُ ، وبقيتْ آثارُه فالعقلُ سبيلٌ وحيدٌ لمعرفته .

طاولةٌ أمامي ، ظهرتْ آثارُها ، وظهرت عينُها ، ألمسُها بيدي ، أحملُها بيدي ، أتلمّسُ سطحَها بيدي ، فالشيءُ الذي ظهرت عينُهُ طريقُ معرفته الحواسُّ الخمسُ ، أمّا الشيءُ الذي غابت عينُهُ ، وبقيت آثارُه فسبيلُ معرفته العقلُ ، فللعقلُ مهمّتُه أنْ يرى من خلالِ العينِ شيئاً ، ويحكمُ على صانعِه ، وعلى هذا فالأثرُ يدلّ على المؤثّرِ



، والتسييرِ يدلُّ على المسيِّرِ ، والخَلقُ يدلّ على الخالقِ ، والنظامُ يدلّ على المنظِّمِ ، هذه المعرفةُ اسمُها المعرفةُ العقليةُ ، أو الاستدلال العقلي .

إنّ الشيءَ إذا غابت عينُهُ ، وغابت آثارُه لم تنفعك الحواسُّ والعقلُ فيه شيئاً ، ولا تستفيدُ في هذه الحالةِ إلا مِن الخبرِ الصادقِ .

فهناك ثلاث دوائر : دائرةُ اليقينِ الحسيِّ لشيء ظهرت عينُهُ وآثارُه ، و دائرةُ اليقينِ العقليِّ لشيءٍ غابتْ عينُهُ وبقيت آثارُه ، ودائرةُ اليقينِ الإخباريّ لشيءٍ غابت عينُهُ وآثارُه .

إنّ أكبرَ مشكلةٍ يعاني منها المسلمون أنهم يأتون بقضيةٍ من المجالِ الإخباريّ ، وينقلونها إلى المجالِ العقليّ ، وهنا يرتبكُ العقلُ ، فالعقلُ هو أعظمُ ما أودعه اللهُ في الإنسانِ ، ولكنه محدودُ المهمّةِ ، لو ملكتَ ميزاناً غالياً جداً ، وحساساً جداً ، ومتقناً جداً ، إلا أنّ طاقتَه القصوى عشرة كيلو ، فلو أردتَ أن تزنَ به سيارتك ، ووضعته على الأرضِ ، وسرتَ فوقَه لكسرتَه ، هل تقولُ : إن صناعته سيئةٌ ؟ أبداً ، إنك استخدمته فوقَ ما صُنِعَ له ، فأيّ إنسانٍ يأتي بقضيةٍ إخباريةٍ ، ويضعُها تحت المحكِّ العقليّ ، أو في دائرةِ العقلِ يقعُ في متاهاتٍ ، وقد يحمله هذا على رفضِ الدينِ .

المثقّفون أحياناً يقعون في مغالطاتٍ خطيرةٍ جداً ، قضيةُ الجنّ مثلاً هي قضيةٌ إخباريةٌ ، لا يستطيعُ العقلُ إثباتَها إطلاقاً ، ليس هذا عجزاً منه ، إنك إنْ عرضتَها على العقلِ كلّفتَه ما لا يطيقُ ، كلّفتَه بمهمّةٍ هي خارجُ اختصاصه ، وكذا قضيةُ الملائكةِ ، وقضيةُ الماضي السحيقِ ، وقضيةُ المستقبلِ البعيدِ ، وقضيةُ صفاتِ اللهِ الذاتيةِ ، هذا شيءٌ غابت عينُهُ وآثارُه ، والعقلُ يحتاجُ إلى آثارٍ ، إلى شيءٍ ملموسٍ ، يحتاجُ إلى غرفةِ نومٍ ليقولَ لكَ : صانعُ هذه الغرفةِ صاحبُ ذوقٍ رفيعٍ ، يحتاج إلى مركبةٍ ليقولَ : معملُ هذه المركبةِ خبرتُه عريقةٌ جداً ، أمّا أنْ تعرضَ على العقلِ شيئاً ليس له أثرٌ ماديٌّ ، وتطالبه أن يعطيكَ الجوابَ هنا يقعُ الإرباكُ ، والتشكّكُ في الدين .

إذاً هناك دائرةُ المحسوساتِ ، والحواسُّ الخمسُ هي الأداةُ الفعّالةُ الوحيدةُ ، وهناك دائرةُ المعقولاتِ ، والعقلُ وحده يقدّمُ لك خيرَ دليلٍ وفهمٍ وحُكمٍ ، أمّا الشيءُ



الذي غابت عينُهُ وآثارُه فدائرتُه اليقينُ الإخباريُّ ، فأنت لكونُك مسلمًا أيُّ قضيةٍ عُرِضَتْ عليك يجب أنْ تصنفَها مع المحسوساتِ ، أو مع المعقولاتِ أو مع الإخبارياتِ ، وإياك ، ثم إياك ، ثم إياك أن تنقلَ قضيةً إخباريةً إلى دائرةِ العقل .

لو جلسنا في قاعةٍ مثلاً ، فإنّ فيها أشياءَ محسوسةً كالطاولةِ والكرسيّ ، نراها بأعيننا ، ونلمسها بأيدينا ، هذه دائرةُ المحسوساتِ ، أمّا الكهرباءُ التي في القاعةِ فنرى آثارَها ، فيحكمُ عقلُنا مِن تكبيرِ الصوتِ ، ومن تألّقِ المصابيحِ بأنّ في هذه القاعةِ كهرباءَ ، لكنْ لو أن الغرفةَ مقفلةٌ فإنه مهما يكن المرءُ ذكياً فهل يستطيعُ أنْ يعرفَ ما بداخلها ؟ هذا مستحيلٌ ، إلاّ أن يخبرَك القيِّمُ على هذه القاعةِ أنّ بداخلها آلةَ تكبيرٍ للصوتِ ، مثلاً ، إذاً شيءٌ تلمسهُ بيدك ، وشيءٌ تستنتجُه بعقلِك ، وشيءٌ تصدّقُه بأذنك .

الآن نكبِّرُ المثلَ ، بعقلِك وحْده تستطيعُ أن تؤمنَ باللهِ ، لأنّ الكونَ كلَّه ينطق بوجوده ووحدانيته وكمالِه ، وبعقلك وحَده تستطيع أن تؤمنَ بالقرآنِ من خلالِ إعجازِه ، قال تعالى :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ .

[الرحمن : الآية 19 – 20].

لقد حارَ علماءُ التفسيرِ في هذه الآيةِ ، إلى أن اكتُشِفَ من خلالِ المركباتِ الفضائيةِ أنّ هناك خطاً بين البحرين ، وأن كلّ بحرٍ لا يمكنُ أنْ يختلطَ بالبحرِ الذي يليه ، وأن طبيعةَ هذا الخطِّ مجهولةٌ ، لكنْ لكل بحرٍ مكوِّناتهُ ، وكثافتهُ ، وملوحتهُ . قال تعالى :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

[الحج : الآية 27 .]

، لمْ يقل : مِن كل فجٍّ بعيدٍ ، لأن الكرةَ كلما ابتعدتْ عن نقطةٍ فيها دخلت في العمق ، دخلت في الخطِّ المنحني .



وقال تعالى أيضاً :

﴿ غُلِبَتْ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ .
[الروم : الآية 2 – 4 .]

في أدنى الأرض ، المعركةُ تمّتْ في غورِ فلسطينَ ، وبعد اكتشافِ أشعةِ الليزر تبيَّنَ أنّ أعمقَ نقطةٍ في اليابسةِ هي غورُ فلسطينَ .

قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ .
[النجم : الآية 45 – 46] .

معنى ذلك أن تحديدَ نوعِ الجنينِ ذكراً كان أو أنثى لا علاقةَ للبيضةِ به إطلاقاً ، وكلما تقدّم العلمُ اكتشفَ إعجازاً علمياً في القرآنِ لا يكادُ يصدَّقُ ، لذلك كان هذا ــ القرآنُ معجزةَ النبيّ ﷺ الخالدةَ ، ولقد قال سيدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه : " في القرآنِ آياتٌ لمّا تفسرَّ بعدُ " .

النبيّ عليه الصلاة والسلامُ أمَرَنا أنْ نذبحَ الذبيحةَ من أوداجِها دونَ قطعِ الرأسِ بالكاملِ ، ولم يكن في عصرِ النبيِّ ﷺ ، ولا في الجزيرةِ العربيةِ ، ولا في مراكزِ الحضاراتِ شرقاً وغرباً مِن معطياتِ العلمِ ما يسمحُ بتعليلِ هذا التوجيهِ ، بل ولا في العصورِ التي تلتْ عصرَه ﷺ ، إلى أنِ اكتُشِفَ أخيراً قَبْلَ بضعةِ عقودٍ مِنَ الزمنِ أنَّ القلبَ ــ قلبَ الإنسانِ وقلبَ الذبيحةِ ــ ينبضُ بتنبيهٍ ذاتيٍّ يأتيه مِن مركزٍ كهربائيٍّ في القلبِ ، ومع هذا المركزِ الأولِ مركزان كهربائيان احتياطيان لهذا المركزِ ، يعملُ الثّاني عندَ تعَطُّلِ الأوّلِ ، و يعملُ الثالثُ عندَ تعطُّلِ الثاني ، ولكنَّ هذا التنبيهَ الذاتيَ الذي يأتي مِن القلبِ يُعطِي النبضَ الطبيعيَ (ثمانينَ نبضةً في الدقيقةِ ، ليس غير) ، أما حينما يواجهُ الكائنُ خطراً ، ويحتاجُ إلى مئةٍ و ثمانينَ نبضةً في الدقيقةِ لتسرُّعِ الدمِ في الأوعيةِ ، و ليرتفعَ الجهدُ العضليُّ بزيادةِ إمدادِه بالدمِ فلابد عندئذٍ مِن أنْ يأتيَ



أمرٌ استثنائيٌّ كهربائيٌّ هرمونيٌّ من الغدةِ النخاميةِ في الدماغِ إلى الكظرِ ، ثم إلى القلبِ ، وهذا يقتضي أنْ يبقى رأسُ الدابةِ متّصلاً بجسمِها حتى يُفَعَّلَ الأمر الاستثنائيُّ برفعِ النبضِ .

بعقلك تستطيعُ أن تؤمنَ بالله موجوداً وواحداً وكاملاً من خلالِ الكونِ ، وأنْ تؤمنَ بالقرآنِ من خلالِ إعجازِه ، وأن تؤمنَ بنبوّةِ النبيِّ ﷺ ، بعد ذلك يتوقّفُ دورُ العقلِ ، ويأتي دورُ الخبرِ الصادقِ .

ثم إنّ ما عجزَ عقلُكَ عن إدراكه لمحدوديةِ مهمّتهِ قد أبلغَكَ الوحيُ به .

العقلُ حِصانٌ تركبه إلى بابِ السلطانِ ، فإذا دخلتَ قصرَ السلطانِ دخلتَ وحدكَ ، العقلُ يصلُ بك إلى اللهِ ، ولا يحيطُ باللهِ ، تركبُ مركبتَك الأرضيةَ ، وتصلُ بها إلى ساحلِ البحرِ ، لكنك لا تستطيعُ أن تخوضَ بها البحرَ ، فالعقلُ يصلُ بك إلى اللهِ ، ولا يمكِّنُك من أن تحيطَ به ، لأنّ كلَّ المخلوقاتِ لا يحيطون بعلمِ اللهِ .

البندُ الثالثُ : إذا كنتَ ناقلاً فالصحّةُ ، أو مدَّعياً فالدليلُ :

البندُ الثالثُ في منهجِ التلقّي وضعَه علماءُ العقيدةِ بينَ أيدينا ، فقالوا : إذا كنتَ ناقلاً فالصحّةُ ، وإذا كنتَ مدَّعياً فالدليلُ .

لو أنك جئتَ بنصٍّ ، فإنّ أخطرَ ما في النقلِ صحّتُهُ ، لأنه نقلٌ عن اللهِ عز وجل ، وإذا جئتَ برأيٍ فعليك أنْ تدعِّمَه بالدليلِ العقليّ ، والنقليّ ، والواقعيّ ، والفطريّ .

وأخطرُ شيءٍ في الإنسانِ عقيدتُه ، نحن أمامَ كتابٍ ، وأمامَ سنّةٍ ، وأمامَ كونٍ ، الكونُ خَلْقُهُ ، والقرآنُ كلامُه ، والسنّةُ تفسيرُ نبيِّهِ لكلامِه ، والواقعُ خَلْقُه ، هل يعقلُ أنْ يتناقضَ خَلْقُهُ مع كلامِه ؟

لا يمكنُ أن يتناقضَ النقلُ مع العقلِ ، لأنّ العقلَ مقياسٌ أودعه اللهُ فينا ، والنقلُ كلامُه .



فإنْ توهّمَ الإنسانُ تناقضاً بين العقلِ والنقلِ فهناك حالاتٌ :

ــ إمّا أنّ النقلَ غيرُ صحيحٍ .

ــ أو أنّ تأويلَ النقلِ غيرُ صحيحٍ .

ــ أو أنّ النقلَ صحيحٌ ، لكن هذه المقولةَ ليست حقيقةً ، ولكنها نظريةٌ .

لذلك قد يتناقضُ العقلُ الصريحِ مع النقلِ غيرِ الصحيحِ ، أو قد يتناقضُ النقلُ الصحيحُ مع العقلِ غيرِ الصريحِ ، وهذا مبعثُ التناقضِ إنْ وُجِدَ ، ولأنّ العقيدةَ خطيرةٌ جدًّا ، ولأنها أساسُ صحّةِ العملِ ، فإنها لا تحتملُ الظنيّاتِ ، فالعقيدةُ كلُّها يقينياتٌ ، لذلك لا تقبلُ العقيدةُ تقليداً في الإسلامِ ، يقبلُ أن تصليَ كما بلَغَك عن صلاةِ النبيَّ ﷺ ، أمّا في الاعتقادِ فلا يقبلُ التقليدُ إطلاقاً ، ولو قُبِلَ التقليدُ في الاعتقادِ لكانت كلُّ الفرقِ الضالةِ على حقٍّ ، فما ذنبُ أتباعِها ؟

في العقيدةِ لا بد من البحثِ ، والدرسِ ، وطلبِ الدليلِ ، قال تعالى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾

[يوسف : الآية 108].

إن كنتَ متبَّعاً للنبي ﷺ فادعُ إلى اللهِ على بصيرةٍ ، أي : بالدليلِ والتعليلِ ، ولولا الدليلُ لقالَ مَن شاءَ ما شاءَ ، فعوِّدْ نفسكَ ألاّ تقبلَ شيئاً إلا بالدليلِ ، وألاّ ترفضَ شيئاً إلا بالدليل .

أرسلَ النبيُّ ﷺ سريّةً ، وأمَّرَ عليهم أنصارياً ، فعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ((بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، فَغَضِبَ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا ، فَجَمَعُوا ، فَقَالَ : أَوْقِدُوا نَارًا ، فَأَوْقَدُوهَا ، فَقَالَ : ادْخُلُوهَا ، فَهَمُّوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا ، وَيَقُولُونَ : فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ النَّارِ ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتْ النَّارُ



، فَسَكَنَ غَضَبُهُ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ)).

[البخاري (4085) ، مسلم (1840)].

يعطَّلُ العقلُ مع القرآنِ والسنةِ فقط ، وما سوى ذلك فالعقلُ لا يعطَّلُ أبداً .

البندُ الرابعُ : المسلمُ أمام ثلاثةِ نصوصٍ لا رابعَ لها :

النصُّ الأولُ : القرآنُ الكريمُ ، والقرآنُ كلامُ اللهِ ، والقرآنُ الكريمُ قطعيُّ الثبوتِ ، فليس لنا معه إلا حركةٌ واحدةٌ ، أنْ نحاولَ فهْمَه .

النصُّ الثاني : السنَّةُ ، وهي ظنيةُ الثبوتِ ، فنحن مكلَّفون مرّتين ، مرَّةً أنْ نتأكَّدَ من صحّةِ الحديثِ ، فقد قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

[البخاري (107) ، مسلم (3004) عن أبي سعيد الخدري].

ثمّ نحن مكلَّفون أنْ نفهمَ مرادَ النبيِّ ﷺ من هذا الحديثِ .

مع القرآنِ حركةٌ واحدةٌ ، أن نفهمَ النصَّ ، أمّا مع السنّةِ فحركتان ، أن نتأكّدَ من صحّةِ النصِّ ، وأن نفهمَ النصَّ .

النصُّ الثالثُ : أيُّ نصٍّ على الإطلاقِ غيرُ الوحيين ، لأيّ إنسانٍ على وجه الأرضِ مهما علا شأنُهُ ، ومهما كبرُ اسمُه ، ولنا معه ثلاثُ حركاتٍ ، أنْ نتأكَّدَ من صحّةِ نسبتهِ إلى صاحبهِ ، كالقولِ المنسوبِ لصحابيٍّ : " المرأةُ شرٌّ كلُّها ، وشرٌّ ما فيها أنه لا بد منها " ، هذا الكلامُ لا أصلَ له ، قال ﷺ : ((أَكْرِمُوا النِّسَاءَ ، فوَاللهِ مَا أَكْرَمَهُنَّ إِلاَّ كَرِيمٌ ، وَمَا أَهَانَهُنَّ إِلاَّ لَئِيمٌ ، يَغْلِبْنَ كُلَّ كَرِيمٍ ، وَيَغْلِبُهُنَّ لَئِيمٌ ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ كَرِيماً مَغْلُوباً مِنْ أَنْ أَكُونَ لَئِيمًا غَالِباً)) .

[فيض القدير (496/3) ، وانظر كشف الخفاء (463/1)].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ)).

[مسند أحمد (151/4) ، ومعجم الطبراني الكبير برقم (856) عن عقبة بن عامر].



نتأكَّدُ من صحةِ نسبةِ القولِ أولاً ، ثم نتأكَّدُ مِن فهْمِه ثانياً ، ونقيسُه بالكتابِ والسنةِ ثالثاً ، فإنْ وافقَهما فعلى العينِ والرأسِ ، وإنْ خالفَهما تركناه ، ولم نعبأْ به .

إنّ هذا العلمَ دِينٌ ، والدينُ مصيريٌّ ، وليس من المعقولِ أنْ نأخذَ الدِّينَ من زيدٍ وعُبيدٍ ، الدّينُ قضيةٌ تنتهي إلى حياةٍ أبديةٍ في جنةٍ أبديةٍ ، أو نارٍ أبديّةٍ ، أيكون الإنسانُ بعدَ هذا ضحيةَ إنسانٍ ؟

إذا صحّت العقيدةُ صحّ العملُ ، وإن فسدتْ فسدَ العملُ ، والعقيدةُ أساسُ الدّينِ ، والعقيدةُ هي الميزانُ ، والخطأُ في الوزنِ لا يتكرَّرُ ، أمّا الخطأُ في الميزانِ فلا يُصَحَّحُ ، يمكن أن تخطئَ ، وتتوبَ ، وانتهى الأمرُ ، أمّا إن كان هناك خللٌ في العقيدةِ فلا يتوبُ الإنسانُ ، بل يتّهمُ الآخرين بالخطأ ، فالمبتدعُ لا تُرجى توبتُه .

إنّ أخطرَ شيءٍ في حياةِ المسلمِ عقيدتُه ، فيجب أنْ يستقيَها من الكتابِ والسنّةِ ، ويجبُ ألاَ يقبلَ شيئاً إلا بالدليلِ ، وألاّ يرفضَه إلا بالدليلِ ، مِن أجلِ أنْ تصحّ العقيدةُ ، وإنْ صحّت العقيدةُ يرجى له الاستقامةُ والتوبةُ .

المسلمون بحاجةٍ ماسةٍ إلى أنْ تتوَحَّدَ صفوفهُم ؟ ويكونُ ذلك إذا عادوا إلى النصوصِ الصحيحةِ ، لأنّ الذي يجمعُنا هو الكتابُ والسنةُ ، والذي يفرِّقنا الآراءُ المنحرفةُ في الدين ، لذلك أهلُ الرأيِ هم أخطرُ فئةٍ في المجتمعِ .

لأنّ هذه الفئةَ تنطلقُ من رأيٍ معيَّنٍ يوافق أهواءَها ، وتجعلُ النصوصَ في خدمةِ رأيها ، تبحثُ في النصوصِ عن نصٍّ يؤيِّدُها ، وتتعامى عن نصٍّ يخالفُها ، فإن كان هناك نصٌّ موضوعٌ يؤيِّدهم تمسكوا به ، وإنْ كان هناك نصٌّ صحيحٌ يخالفهُم تجاهلوه ، وهم بهذا يجعلون الدينَ فِرَقاً وشِيَعاً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

[الأنعام : الآية 159] .



وقال سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

[الأنعام : الآية 65] .

حينما ينطلقُ الإنسانُ من نصٍّ موضوعٍ ، أو نصٍّ ضعيفٍ ، أو من تأويلٍ مغلوطٍ تفرَّقْنا طرائقَ قِدَدًا ، ومِلَلاً شتّى ، ونحن الآن بحاجةٍ إلى الوحدةِ ، وحدةِ القلوبِ والمفهومات ، وحدةِ القدراتِ ، وحدةِ الأهدافِ ، وحدةِ المنطلقاتِ ، هذا الذي يُعِينا ، ولا يجوزُ أن تنتميَ إلى غيرِ مجموعِ المؤمنين ، أمّا إذا انتميتَ إلى فقاعةٍ صغيرةٍ ، أو إلى فئةٍ منحرفةٍ فهذا مِن شأنِهِ أنْ يمزّقَ ، قال تعالى :

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

[الشعراء : الآية 215].

والآية الثانية :

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[الحجر : من الآية 88] .

المسلمُ أخٌ لكلّ مؤمنٍ ، ولو لم يكن في مسجدِه ، ولو لم يكن من حَلقتهِ ، ولو لم يكن من طريقتهِ ، هذا الذي يجمعنا ، ويفرّقنا الانتماءاتُ الجزئيةُ ، قال سبحانه في كتابه :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

[الأنفال : الآية 46].



والمسلمون أقوياءُ بوحدتهم ، ضعفاءُ بتمزّقهم ، هذا هو منهجُ التلقِّي .

لو فرضنا غرفةً فيها ألفُ قطعةٍ صفراءَ تلمعُ ، وأخبرناك أنّ من هذه الألفِ مئةَ قطعةٍ من الذهبِ الخالصِ من عيار (24) ، ومئةَ قطعةِ من عيار (21) ، ومئةً ثالثةً من عيار (18) ، ومئةً رابعةً من عيار (16) ، ومئةً خامسةً من عيار (11) ، ومئةً سادسةً من النحاسِ المطليِّ بالذهب ، ومئةً سابعة من الحديدِ ، وأنت معك ربع ساعة لتأخذ مئةَ قطعةٍ منها فقط ، لو أنك تملكُ جهاز اً ، واستطعتَ أن تختارَ الذهبَ الخالصَ من عيار (24) لأصبحتَ غنيًّا ، أمّا إن انتقيتَ الحديدَ فالمشكلةُ كبيرةٌ .

بطولتك أنْ تملكَ مقياساً للتلقِّي ، لأنّ ما كُتِبَ في الدين لا يُعدّ ولا يحصى ، والناسُ فِرَقٌ ، ومِلَلٌ ، ونِحَلٌ وأَوْهامٌ ، وتزويرٌ .

لماذا ظهرتِ المذاهبُ الأربعةُ ؟

في الإنسانِ ثوابتُ ومتغيِّراتٌ ، فللنصوصُ قطعيةُ الدلالةِ تغطِّي الثوابتَ ، ـــ والنصوصُ ظنيّةُ الدلالةِ تغطِّي المتغيِّراتَ ، أَمَرَنا اللهُ عز وجل بدفعِ الزكاةِ ، هناك مدينةٌ وريفٌ ، لو أعطيتَ إنساناً يسكنُ في المدينةِ كيساً من القمحِ لكان بلاءً عليه ، كيف يطحنُهُ ، كيف يخبزُه ، أعطِهِ مبلغاً من المالِ يحسنُ الانتفاعَ به .

قال الله عز وجل :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾.

[المزمل : الآية 20] .

لم يذكرْ كيفيةَ دفعِ الزكاةِ ، فجاء العلماءُ ، واجتهدوا معتمدين على نصوصِ السنّةِ ، قال بعضهم : تدفُعُ الزكاةُ عيناً ، وقال آخرون : تدفُعُ الزكاةُ نقداً ، وهذا الاختلافُ ليس اختلافَ تناقضٍ ، إنما هو اختلافُ تنوُّعٍ وغنًى ، فالعلماءُ المجتهدون اتفاقُهُم حُجّةٌ قاطعةٌ ، واختلافهُم رحمةٌ واسعةٌ .



أوضِّحُ هذا بمثالٍ :

أعطِ فلاناً ألفاًوخمسمئة درهمٍ ، هذا النصُّ قطعيّ الدلالةَ ، لا يحتاجُ لا إلى مفسرٍ ، ولا إلى مجتهدٍ ، ولا إلى فقيهٍ ، أمّا لو قلنا : أعطِ فلاناً ألفَ درهمٍ ونصفه ، فعلامَ تعود الهاءُ ؟ على الألف ، إذاً أعطِه ألفاًوخمسمئة ، على الدرهمِ ؟ إذاً أعطِه ألفاًونصفَ درهمٍ ، فهذا النصُّ احتماليٌّ .

عندما يأتي الإنسانُ بنصٍّ احتماليٍّ فهذا من ضعفهِ باللغةِ ، هو يريدُ معنىً واحداً ، ولكنه جاء بعبارةٍ واسعةٍ ، فكل تشريعٍ أرضيّ يحتاجُ إلى تفسيرٍ وشرحٍ واجتهاداتٍ ، أما الإلهُ إذا جاء بنصٍّ احتماليّ فمعنى ذلك أنه يريدُ كلّ الاحتمالاتِ رحمةً بعباده ، وهذا فرقٌ كبيرٌ جداً بين النصّ الاحتماليّ الإلهيّ ، والنصّ الاحتماليّ البشريّ ، لماذا ظهرت المذاهب إذًا ؟ لأنّ في الكتابِ والسنةِ نصوصاً احتماليةُ الدلالةِ فيها مقصودةٌ ، والاحتماليُّ يراد به كلّ المعاني توسعةً على العبادِ ، ورحمةً بهم .

المرأةُ المعذورةُ التي لم تستطعْ أن تطوفَ طوافَ الإفاضةِ ، عند الأحنافِ عليها بدَنَةٌ ، أي جَمَلٌ ثمنهُ مئة وخمسون ألفاً، وعند الشافعيةِ ينتظرُها قومُها ، وتغدو أميرةَ الحجّ ، وعند المالكيةِ تطوفُ البيتَ ، ولا شيءَ عليها ، لو أنّ المرأةَ كانت ميسورةً نقول لها : أطعمي الفقراءَ ، ولو أن للمرأة ابناً في جُدَّةَ ، وزوجُها تاجرٌ ، نقول لها : انتظري ، والمرأة الملحَقةُ بفوجٍ لا تملكُ قوتَ يومِها نقول لها : طوفي البيتَ ، ولا شيءَ عليك .



المقوم الخامس : الشهوة

01 - الشهوة



01 - الشهوة

الشهواتُ حياديّةٌ ، وهي طريقٌ إلى اللهِ تعالى .

رُكِّب في كيانِ الإنسانِ هذه الشهواتُ ، وقد يَفهمُ البعضُ أنّ هذه الشهواتِ أساسُ فسادِ العالَمِ ، والحقيقةُ عكسُ ذلك ، فلولا هذه الشهواتُ التي رُكِّبَتْ فينا لما دخلنا الجنةَ ، ثمّ إنّ هذه الشهواتِ حياديةٌ ، إنها سُلَّمٌ يَرقى الإنسانُ به إلى الجنةِ ، أو دركاتٌ يَهوي بها إلى النارِ ، وهي بمنزلةِ محرِّكٍ يحرِّك المركبةَ ، فإذا كان مع هذا المحرّكِ مِقوَدٌ يحافظُ على بقاءِ السيارةِ على الطريقِ المعبَّدِ كان هذا المحرّكُ قوةَ دفعٍ لهذه المركبةِ ، أمّا إذا كان المحرّكُ يعمل بلا مِقوَدٍ ، وفي الطريقِ انعطافاتٌ ، وعلى جانبَيْهِ ودْيانٌ سحيقةٌ ، فالهلاكُ حتميٌّ .

إذاً الشهواتُ حياديةٌ ، وليست هي سببَ فسادِ العالَمِ ، بل إنّ سوءَ استخدامِها هو سببُ فسادِ العالَمِ .

فإيّاك أن تتهِمَ الشهواتِ ، فلولاها لَمَا ارتقيتَ إلى ربِّ الأرضِ والسماواتِ ، ولولاها لَمَا دخلتَ الجنةَ ، ولَمَا تقرَّبتَ إلى اللهِ .

هل من طريقٍ آخرَ تتقرّبُ به إلى اللهِ غيرُ طريقِ الشهواتِ ؟ المالُ محببٌ ، فإذا أنفقتَ حلالاً ارتقيتَ إلى اللهِ ، فلو كان مع شخصٍ مبلغاً من المال فإنه يمكنه أنْ يأكلَ طعاماً نفيساً هو وأهلُهُ ، لكنّه أعطاه لفقيرٍ ، لولا أنك تحبّ هذا المبلغَ لما ارتقيتَ بإنفاقه ، وأودعَ اللهُ فيك حبَّ النساءِ ، فلولا أنك تحبُّ النساءَ ، ومررتَ في طريقٍ على امرأةٍ سافرةٍ ، وغضضتَ بصرَك عنها لا ترقى إلى اللهِ .

والإنسانُ يُصلِّي في اليومِ خمسَ مراتٍ ، أمّا إذا سارَ في الطريقِ المشروعِ فإنه يصلِّي آلافَ المراتِ ، لأنّه كلما غضَّ بصرَه عن امرأةٍ أجنبيةٍ ارتقى إلى اللهِ .

لأنّ الإنسانَ خُلِقَ من نفخةٍ من روحِ اللهِ ، ومن قبضةٍ مِن طينِ الأرضِ فيه نوازعُ سفليةٌ ، ونوازعُ عُلْويةٌ ، وهذان الاتجاهان واضحان في كلِّ إنسانٍ يتمنى أنْ يكونَ طاهراً عفيفاً ، كريماً صادقاً ، وفياً ، وهذا الأمرُ من النوازعِ العُلويّةِ ، مِن أثرِ



نفخةِ روحِ الله ، ويحبّ أن يأكلَ ، ويشربَ ، ويتزوجَ ، وهذه الدوافعِ التي أساسُها أنه خُلِقَ من قبضةٍ من طينِ الأرضِ .

إنّ مِن أدَقِّ الموضوعاتِ التي يهْتَمُّ لها المؤمنُ الصِّراعَ المُسْتمرَّ بين أن يُلَبِّي حاجَةً ، وأن يُطَبِّقَ أمْراً ، ما مِن يومٍ ، وما من ساعةٍ ، وما من دقيقةٍ إلاّ وأنت بين شيئين : إمّا أن تُطيعَ ، أو أن تسْتجيبَ لِنَزْعة ، أو رغْبة ، أو مَيْلٍ ، أو هوى .

سافرَ إنسانٌ إلى بلدٍ آخرَ ، وعنده في بلدِه زوْجةٌ وأولادٌ ، وهو مُحْتَرَمٌ اجتماعياًّ ، وله مكانةٌ ، فزَلَّتْ قدَمُه هناك ، فأُصيبَ بمَرَض ، ولا يجْرُؤُ أن يذكرَ هذا المرَضَ خوْفاً من أنْ يسْقطَ من عيونِ الناسِ ، يقولُ مرَّةً : واللهِ عانَيْتُ منه ستَّةَ عَشَرَ عاماً ، وأنا أتَأَلَّم ، وكُلُّ هذا الألمِ ، وهذا الحزْنِ ، وهذا الخوْفِ من شَهْوةِ ساعةٍ .

ألا يا ربّ شَهْوة ساعة أورَثَتْ حزْناً طويلا

قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

[القصص : من الآية 50] .

المعنى المُخالفُ أنّ الذي يتَّبعُ هواه وَفْقَ هُدى اللهِ لا شيءَ عليه ؛ اِشْتهى المرأةَ فتَزَوَّجَ ، واشْتهى المالَ فعَمِلَ عملاً شريفاً ، واشْتهى أن يكونَ ذا سُمْعةٍ طيِّبَة فأطاعَ اللهَ عز وجل ، فحقَّقَ كُلَّ هذه الشَّهواتِ وَفْقَ منْهجِ الله تعالى ، فالإسْلام لا حِرْمانَ فيه ، هناك تنْظيمٌ ، وطهارةٌ ، ونِظامٌ ، وراحةٌ نفْسِيَّة عَقِبَ كُلِّ شَهْوة يفْعلها الإنسانُ وَفْقَ منهجِ اللهِ .

قد يُقاربُ الإنسانَ زوْجتهَ ، ويصلي قيامَ الليلِ ، ويبْكي في هذا القِيامِ ، لأنَّهُ ما فعلَ شيئاً خِلافَ منهجِ اللهِ ، أمّا إنْ ملأَ عَيْنَيْه مِن مَحاسِنِ امْرأةٍ أجْنَبيَّةٍ لا تَحِلُّ له فإنه يُحْجَبُ عن اللهِ ، نظْرَةٌ فقط تحْجبه ، وعلاقةٌ كاملةٌ لا تحْجبُ ! هذه وَفق منهجِ اللهِ ، وتلك على خلافِ منهجِ اللهِ ، فالصبرُ عن الشَّهْوةِ أسْهلُ من الصبرِ على ما توجبُه الشَّهْوةُ .



لا حرمانَ في الإسلامِ ، ولكن فيه ضبطٌ وتنظيمٌ :

إنّ الشهواتِ التي أودعها اللهُ فينا قيَّدها في الوقتِ نفسِهِ بمنهجٍ رسمَه اللهُ لنا ، فما مِن شهوةٍ أودعها اللهُ في الإنسانِ إلاّ وجعلَ لها قناةً نظيفةً تسري خلالَها ، فلو سارتْ هذه الشهوةُ في القناةِ النظيفةِ لآتتْ أُكُلَها ضِعفَين .

يمكنُ أن تتحرّكَ بالشهوةِ مئةً وثمانين درجةً ، ولكنّ الشرعَ سمحَ لك بثمانين درجةً فقط ، الدينُ عمليةُ ضبطٍ ، والفسادُ عمليةُ تفلُّتٍ ، فكلّ رجلٍ أودعَ اللهُ فيه حبَّ المرأةِ ، وكلُّ امرأةٍ أودعَ اللهُ فيها حبَّ الرجلِ ، ولكنّ المؤمنَ والمؤمنةِ ينضبطان وَفقَ منهجِ اللهِ ، فتكونُ هذه الشهوةُ دافعاً لهما إلى الجنّةِ ، فالدّينُ كلُّه ، والإيمانُ كلّه عمليةُ ضبطٍ فقط ، قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

[النازعات : الآية 40 – 41] .

الوقودُ السائلُ في المركبةِ فيه قوّةٌ انفجاريةٌ ، لكنه إذا وُضِعَ في مستودَعٍ مُحكَمٍ ، وسالَ في الأنابيبِ المحكَمَةِ ، وانفجرَ في الوقتِ المناسبِ ، وفي المكانِ المناسبِ ، ولّدَ حركةً نافعةً تسعدُ بها ، وتنقلُكَ أنت وأهلَكَ إلى مكانٍ جميلٍ ، ما الذي جرى في السيارةِ ؟ انفجارٌ ، لكنه انفجارٌ وفقَ المنهجِ ، أما لو خرجَ هذا الوقودُ عن مسارِ ه ، وأصابت السيارةَ شرارةٌ لأحرقتْ المركبةَ ومَن فيها .

فالإنسانُ لا يتألم من الشهوةِ ، بل يتألّمُ من نفسِهِ ، بشكلٍ أو بآخرَ ، السُّكَّر مادّ ةٌ ثمينةٌ ، والملحُ مادّةٌ ثمينةٌ ، فلو وضعتَ الملحَ في الحلوياتِ ، هل تأكلها ؟ أو وضعتَ السكرَ في طبخةٍ غاليةِ الثمنِ ، هل تأكلها ؟ لقد أفسدتَ الطبخةَ ، السكرُ مادّ ةٌ ثمينةٌ ونافعةٌ ، والملحُ مادّةٌ ثمينةٌ ونافعةٌ ، لكنك أسأتَ الاستعمالَ ، فالفسادُ هو في إساءةِ الاستعمالِ ؛ فالمرأةُ خُلِقَتْ لتكونَ زوجةً لك ، تسعدُ بها ، وتسعدُ بك ، وتنجبُ أطفالاً



ترفرفُ بوجودِهم على البيتِ السعادةُ والهناءُ ، أمّا إذا سلكتَ في قضاءِ هذه الشهوةِ طريقًا حرَّمه اللهُ شقيتَ ، فالشقاءُ هو في سوءِ استخدامِ هذه الحظوظِ ، وتلك الشهوةِ .

بالشهواتِ ترقى إلى اللهِ مرّتين ؛ صابراً وشاكراً :

إنّ هذه الشهواتِ ترقى بها إلى اللهِ مرتين ، ترقى بها مرّةً صابراً ، ومرّةً شاكراً ، فإذا نظرتَ إلى ما يحلُّ لك ترقى شاكراً ، وإذا غضضتَ عمّا لا يحلّ لك ترقى صابراً ، إذا كسبتَ المالَ من وجوهِه المشروعةِ ، وأنفقتَه فيما هو مشروعٌ ، كأنْ تأتيَ مثلاً بالطعامِ والشرابِ والفواكهِ لأولادك ، وقد أدخلتَ على قلوبهِم السرورَ ، فإنّك ترقى إلى اللهِ شاكراً ، فإذا امتنعتَ عن أخذِ مالٍ حرامٍ ، فيه شبهةٌ ، وأنت في أشدِّ الحاجةِ إليه ، وقد أودعَ اللهُ في كيانِك حبَّ المالِ ، ترقى إلى اللهِ صابراً ، فهذه الشهواتُ إذًا كالمنشارِ ، ترقى بها مرتين ، فإنْ سلكتَ القناةَ النظيفةَ التي سمحَ اللهُ لك أن تسلكَها ارتقيتَ إلى اللهِ شاكراً ، وإن ابتعدتَ عن الوجهِ الذي حرّمه اللهُ عليك ترقى إلى اللهِ صابراً ، فإذا امتنعَ الإنسانُ عن أخذِ المالِ الحرامِ يرقى ، وإذا سلك الطريقَ المشروعَ يرقى ، وإذا غضّ بصرَه عن امرأةٍ أجنبيةٍ يرقى ، وإذا نظرَ إلى امرأتِه يرقى .

هذا معنى قولِ اللهِ تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ .

[آل عمران : الآية 14].

وكأن المتاعَ كلَّه في كلمة ﴿ ذَلِكَ ﴾ ، هذه التي بين يديك ، ﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ .

فإذا اتقى الإنسانُ اللهَ في هذه الشهواتِ ، وجاءه ملَكُ الموتِ ليقبضَ روحَه ، وقد مات على الإيمانِ ، وعلى طاعةِ رسول الله ﷺ ، فله عودةٌ إلى اللهِ لا توصفُ من



شِدّةِ السعادةِ ، ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ ، فحينما تؤوبُ إلى الله ، وقد اتقيتَ اللهَ في هذه الشهواتِ ، فلك عودةٌ لله عز وجل ، وأنتَ في أسعدِ الحالاتِ .

لذلك قالوا : الموتُ عرسٌ المؤمنِ ، والشيءُ الثابتُ أنَّ أسعدَ لحظاتِ المؤمنِ حين يلقى ربهَّ .

فلك أن تتزوج ، وأنْ تنجبَ الأولادَ ، وتشتغلَ ، وتكسبَ المالَ كلَّ ه بالطريق الحلالِ ، وفقَ المنهجِ الربَّانيِّ ، ادرسْ ، واحصلْ على شهاداتٍ عليا ، وتاجرْ ، وافتحْ محلاّتْ ، ضمْنَ المنهجِ ، وكن صادقًا ، لا غشّ ، ولا تدليسَ ، ولا ربا ، وكلُّ عملك وَفقَ المنهجِ ، فاللهُ ما حرَّم عليك الدنيا ، وليس بخيركم مَن تركَ دنياه لآخرته ، ولا مَن تركَ آخرتهَ لدنياه ، إلا أنْ يتزوّدَ منهما معاً ، فإنّ الأولى مطيةٌ للثانيةِ ، والدعاءُ الشريف : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلْ ـ

الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)).

[مسلم (2720)] .

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ : ((اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ))

[الترمذي (464) ، أبو داود (1425) ، الدارمي (1593)].

وهذه واقعية النبي ﷺ .

دقِّقوا في الآيةِ التاليةِ ، فكلُّ واحدٍ من الناسِ ذاقَ نعمةَ المالِ ، ونعمةَ النساءِ ، ونعمةَ الزوجةِ ، ونعمةَ البيتِ المريحِ ، والمركبةِ الفاخرةِ ، والبيتِ في المصيفِ .



ثم إنّ ربنا عز وجل يقول لكم : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ﴾ ، هل أنت مصدِّقٌ لله عز وجل :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ ،

وأثمنُ من كلِّ ذلك ،

﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾.

[آل عمران : الآية 15].

لذلك ما أخذت الدنيا من الآخرةِ إلاّ كما يأخذُ المخيطُ إذا غُمِسَ في مياهِ البحرِ ، أخرجْ من جيبك إبرةً ، واغمسها في مياهِ البحرِ ، ثم اسحبها ، واحسُب النسبةَ ، كم نقصَ من ماءِ البحرِ ؟ وكذلك قال النبي ﷺ :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

[النجم : الآية 3 – 4] .

المال والنساء :

إنّ أطولَ قصةٍ في القرآنِ الكريمِ هي قصةُ سيدنا يوسفَ عليه السلامُ ، ومحورُها الأساسيُّ أنّ امرأةً ذاتَ منصبٍ وجمالٍ دعتْ هذا النبيَّ الكريمَ الشابَّ الطاهرَ فقال : إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)) .

[مسلم (2742) ، الترمذي (2191) ، ابن ماجه (4000) ، أحمد (11159)].

هذه الشهوةُ لها قوّةُ وهجٍ ، وقوّةُ جذبٍ ، والإنسانُ يتأثّرُ بها عن بُعدٍ ولو بالصورةِ ، أو بالشاشةِ ، أو بالقراءةِ ، فما لم يَدَعِ الإنسانُ بينه وبين هذه الشهوةِ هامشَ أمانٍ فإنّ أثرَها سيصلُ إليه .



بعضُ الغواصاتِ تتحرّكُ بالطاقةِ الذريةِ ، بكميّةٍ بسيطةٍ من اليورانيوم يمكن أن تحرّكَها سنتين .

كأن هذه الشهوةَ الجنسيةَ في الإنسانِ كهذا اليورانيوم ، تدفعُه إلى العملِ ، وإلى الإتقانِ ، وإلى كسبِ المالِ الحلالِ ، من أجلِ أن يتزوّجَ ، ويطعمَ أولادَه ، فما هذه الشهوةُ التي أودعها اللهُ فينا إلا باعثٌ للعملِ ، أمّا إذا أصبحتْ هدفاً بنفسِها ، ولم تتقيّدْ بمنهجِ اللهِ كانت قوّةً مدمِّرةً .

يُؤخَذُ الإنسانُ من مَزلقَيْن خطيرين ؛ المالُ والنساءُ ، وهما نقطتَا ضعفٍ في شخصيته ، وكلّ الذين سقطوا في تاريخِ البشريةِ سقطوا من فضيحةٍ ماليةٍ ، أو من فضحيةٍ أخلاقيةٍ ، فلذلك أعظمُ ما في هذا الشرعِ أنّ اللهَ جعلَ بينك وبين المعصيةِ الكبرى هامشَ أمانٍ ، كأنك تمشي على شاطئِ نهرٍ عميقٍ مخيفٍ ، له شاطئٌ مائلٌ زلقٌ ، وآخرُ مستوٍ جافٌّ ، إنك إنْ مشيتَ على الشاطئِ الزلقِ فاحتمالُ السقوطِ كبيرٌ جداً ، وإن مشيتَ على الشاطئِ الجافِّ فاحتمالُ النجاةِ كبيرٌ جداً ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾

[الإسراء : من الآية 32].

ولمْ يقل : ولا تزنوا .

ومن عجيبِ ما قرأتُ أنّ الإنسانَ إذا تجاوزَ الخطَّ الأحمرَ في علاقتِه بالمرأةِ ، كأنْ صارَ في خلوةٍ معها ، أو صحبَ الأراذلَ ، أو استمعَ إلى شيءٍ لا يرضي اللهَ ، فإن الدماغَ يفرزُ مادّةً تعطّلُ محاكمتَه ، لذلك تجد أشخاصاً كبراءَ سقطوا في خلوةٍ ، فإذا تجاوزَ الإنسانُ الخطَّ الأحمرَ فهذا يمكنُ أن يعطِّلَ محاكمتَ ه ، وأنْ يوقِعَه في الفاحشةِ ، وأنْ يكونَ هلاكُه بسببِها ، لذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((...لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ)).

[الترمذي (1171)].



ما قال : ما خلا كافرٌ بامرأةٍ ، وما قال : ما خلا فاسقٌ بامرأةٍ ، بل قال : ((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ)) ، يجبُ أن تحيطَ نفسك ببيئةٍ طيّبةٍ مؤمنةٍ ، وبأناسٍ أطهارٍ صادقين ،ورعين ، مستقيمين،

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

[التوبة : الآية 119].



المقوم السادس : حرية الاختيار

01 - حرية الاختيار

02 - مسائل مهمة في التخيير



01 - حرية الاختيار

إنّ أخطرَ شيءٍ في الدينِ هو العقيدةُ ، فإن صحّت صحّ العملُ ، وإن صحّ العملُ بلغَ الإنسانُ الأملَ ، وما من عقيدةٍ فاسدةٍ تشلُّ حركةَ الإنسانِ شلاًّ كاملاً ، وتجعلُه قاعداً مستسلماً لمصيره المحتومِ كعقيدةِ الجبرِ ، كأن يعتقدَ الإنسانُ أنّ اللهَ أجبرَه على كلّ أعمالِهِ ، وسوف يحاسبهُ عليها ، مع أنه مجبرٌ عليها ، كما قال الشاعر :

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتلَّ بالماءِ

ومثلُ ذلك كما لو أنّ مديرَ مدرسةٍ جمعَ الطلابَ في أوّلِ يومٍ من أيامِ الدراسةِ ، وتلا عليهم أسماءَ الناجحين ، وأسماءَ الراسبين سلفاً ، ثمّ قال لهم : انطلقوا إلى الصفوفِ ، وادرسوا .

الأدلةُ على أنّ الإنسانَ مخيَّرٌ :

1 – الدليلُ النقليُّ :

قال تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾.

[الأنعام : الآية 148].

قال علماءُ التفسيرِ وعلماءُ العقيدة : " هذه الآيةُ أصلٌ في أنّ الإنسانَ مخيّرٌ ، فمَن ادّعَى أنه مسيّرٌ ، أو مكرَهٌ ، أو مجبرٌ فقد التقى مع اعتقادِ المشركين .

الخرصُ هو أشدُّ أنواعِ الكذبِ ، وهذا هو الكذبُ على اللهِ تعالى ، ويقول الإمامُ الغزالي : " لأنْ يرتكبَ العوامُّ الكبائرَ أهونُ مِن أن يقولوا على اللهِ ما لا يعلمون " .

بل إنّ اللهَ جل جلاله حين رتّبَ المعاصيَ ترتيباً تصاعدياً في آيةٍ من سورة الأعرافِ جعلَ أكبرَ معصيةٍ : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[الأعراف : من الآية 33].



وفي آيةٍ أخرى يقول تعالى :

﴿ ويُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

[الفتح : الآية 6] .

وقال سبحانه :

﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

[آل عمران : الآية 154] .

وقال في آيةٍ أخرى:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

[الإنسان : الآية 3].

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ .

[الليل : الآية 12].

وقال تعالى :

﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

[الكهف : الآية 29].



وقال تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

[فصلت : الآية 17] .

وقال تعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[البقرة : الآية 148].

توهّم بعضُهم أنّ الضميرَ ﴿ هُوَ ﴾ في قولِه : ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ يعودُ على اللهِ ، ولو أَعَدْنَا هذا الضميرَ على اللهِ لفسدَ المعنى تماماً ، كأنْ تقولَ ، وأنت تركبُ السيارةَ لمَن يجلسُ في المقعدِ الخلفيِّ : اذهب إلى اليمين ، يقول لك : الأمرُ ليس بيدي ، المِقْوَدُ بيدك ، فإذا كان اللهُ عز وجل هو الذي يولِّيها ، فلماذا يقولُ إذاً :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾

فالضميرُ ﴿ هُوَ ﴾ يعودُ على الإنسانِ ، ولكنّ الإنسانَ أحياناً قد يشمُّ مِن بعضِ الآياتِ رائحةَ الجبرِ ، فبماذا نجيبُه ؟

هناك قاعدةٌ أصوليّةٌ قطعيةٌ ، وهي أنّ الآياتِ المتشابهاتِ مهما كَثُرتْ تُحمَلُ على الآياتِ المحكَمَاتِ مهما قَلَّتْ .

لنضربْ مثالاً على ذلك : لو قلتُ لك : القمحُ مادّةٌ خطيرةٌ ، فما معنى أنها خطيرةٌ ؟ هل معنى هذا أنّها متفجِّرةٌ ، أو أنها أساسيّةٌ في حياةِ الإنسانِ ، هذه كلمةٌ مبهمةٌ احتماليةٌ ، كلمةٌ فيها شبهةٌ ، قلتُ لك بعد قليل : القمحُ مادّةٌ أساسيّةٌ في حياةِ الإنسانِ ، إذاً كلمةُ (خطيرة) نحملُها على أنها أساسيّةٌ ، فالآياتُ المتشابهاتُ مهما كَثُرَتْ تُحمَل



على الآياتِ المحكماتِ مهما قَلَّتْ ، ولو أنّ في القرآنِ الكريمِ ألفَ آيةٍ يُشَمُّ منها رائحةُ الجبرِ فهذه كلُّها تحملُ على قولِه تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾.

[الأنعام : الآية 148].

لنأخذْ بعضَ هذه الآياتِ ، يقول تعالى :

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

[التكوير : الآية 29].

فالمعنى هنا أنّ إرادةَ اللهِ شاءت أن تكونوا أصحابَ مشيئةٍ ، ولولا أنّ اللهَ شاء أن تكونوا أصحابَ مشيئةٍ لمَا شئتم ، فإذا سعدتم بمشيئتكم ، وكانت هذه المشيئةُ سببَ رقيِّكم وسعادتِكم وفوزِكم فاعلموا أنّ هذه المشيئةَ من مشيئةِ اللهِ تعالى ، وليس المعنى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ الجبرَ ، ولكنّ معناها الفضلُ ، وفرقٌ كبيرٌ بينهما .

آيةٌ أخرى ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

[السجدة : الآية 13] .

جعلَ اللهُ الإنسانَ المخلوقَ المكرمَ ، كرّمه بالاختيارِ ، وكوّمه بالعقلِ ، وكرّمه بالتشريعِ ، لذلك يكونُ المعنى في هذه الآيةِ الأخيرةِ : لو شئنا أنْ نجبرَكم على شيءٍ ما ، وأن نلغيَ اختيارَكم ، ونلغيَ تكريمَكم ، ونلغيَ تفضيلَكم ، وهويتكم ، واختياركم ، وأردنا أنْ نجبرَكم لَمَا أجبرناكم إلاَ على الهدى ، لكنّ هذا الهدى الناتجَ عن الإكراهِ لا يُسعِدُ إطلاقاً ، ولا نرقى به إلى الجنةِ .



أما قولُه تعالى :

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

[المدثر : من الآية 31].

فله معانٍ ثلاثة :

المعنى الأوّلُ : هذا هو الضلالُ الجزائيُّ المبنيُّ على ضلالٍ اختياريٍّ ،قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ .

[الصف : من الآية 5] .

المعنى الثاني : أنّ اللهَ أضلّه عن هذا الشريكِ ، حينما يعتمدُ الإنسانُ على جهةٍ أرضيةٍ يلهمُ ربُّنا عز وجل هذا الإنسانَ الذي اعتمدَ عليه أنْ يخيِّبَ ظنَّه ، وبهذا يكونُ اللهُ قد أضلّه عن هذا الشريكِ ، ذلك أنّ هذا الشريكَ لو لبَّاهُ دائماً لألَّهه ، فلمجرّدِ أنْ تعتمدَ على جهةٍ غيرِ اللهِ عز وجل يخيِّبُ اللهُ عز وجل ظنَّك بهذا الإنسانِ ، فتتألّمُ ، فيكونُ اللهُ قد أضلَّك عن الشريكِ الذي جعلتَه شريكاً له تعالى .

المعنى الثالثُ : أنّ الضلالَ الذي يُفهَمُ من هذه الآياتِ كما لو أنّ إنساناً سافرَ إلى بلدٍ ، وفي طريقِه إلى هذا البلدِ وجدَ طريقين ، فوقع في حيرةٍ ، أيّهما يسلك ، فسأل أحدَهم ، فقال له : مِن هذا الاتّجاهِ ، فقال له : أنت كاذبٌ ، في هذه الحالةِ لنْ يكونَ بإمكانِ هذا الرجلِ المسؤولِ أنْ يعطيَه معلوماتٍ إضافيةً عن هذا الطريقِ ؟ عن وجودِ حاجزٍ ، أو تحويلةٍ ، أو جسرٍ ، وما شابه ذلك ، لأنه رفضَ الطريقَ مِن أصلِه ، وعندما يرفضُ الإنسانُ الدينَ فإن الله تعالى يضلُّه ، فلا يستفيدُ من تفاصيلِ الدِّينِ ، ولو أنّ إنساناً رفضَ الجامعةَ مِن الأساسِ فلن يستفيدَ مِن مكتبتِها ، ولا من هويّتِه كطالبٍ ، ولا من حسمٍ في الطيرانِ ، وكلُّ الميزاتِ انتهت بالنسبةِ إليه .



2 – الدليلُ العقليُّ :

وهو أنه لا يُعقَلُ ، ولا يصحُّ ، ولا يليقُ بكمالِ الله عز وجل أنْ يقولَ كلاماً لا معنى له ، قد يقولُ الإنسانُ كلاماً لا معنى له ، اضطرارًا ، أو مجاملةً ، أو نفاقاً ، ـ أو مداراةً ، أما خالقُ الكونِ فلا يُعقَلُ أن يقولَ كلاماً بلا معنى ، لو أنك تسيرُ في ممرٍّ ضيِّقٍ عرضَه كعرضِ كَتِفَيْكَ تماماً ، وقيل لك : اتّجِهْ نحوَ اليمينِ ، لكان هذا هراءً ، وكلاماً لا معنى له ، قال العلماء : " لمجرّدِ وجودِ الأمرِ والنهيِ فأنت مخيَّرٌ " ، ولو أنك مسيَّرٌ فما معنى أنْ يأمرَك اللهُ أن تكونَ صادقاً ، وما معنى أن ينهاك عن الكذبِ ، وما معنى أن يأمرَك بالصلاةِ ، وأن ينهاك عن الخمرِ والزنا ، إذاً لمجرّدِ الأمرِ والنهيِ فأنت مخيَّرٌ ، لذلك حينما جيءَ برجل شارب للخمر إلى سيدِنا عمر قال : " أقيموا عليه الحدَّ ، فقال الرجلُ : واللهِ يا أميرَ المؤمنين ، إن اللهَ قدَّرَ عليّ ذلك ، فقال سيدنا عمرُ : أقيموا عليه الحدَّ مرتين ، مرةً لأنه شربَ الخمرَ ، ومرّةً لأنه افترى على الله ، ثم قال : ويحكَ يا هذا ، إنّ قضاءَ الله لم يخرجك من الاختيارِ إلى الاضطرارِ " ، لذلك قال سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه : " لو أنّ مسيرَنا إلى الشامِ بقضاءٍ وقدرٍ لعلك ظننتَ قضاءً لازماً ، وقدراً حاتماً ، إذاً لبطلَ الوعدُ والوعيدُ ، ولانتفى الثوابُ والعقابُ ، إن اللهَ أمرَ عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلّفَ يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يُعصَ مغلوباً " .

يقول سيّدُنا الحسنُ : " لو أنّ اللهَ أجبرَ عبادَه على الطاعةِ لبطلَ الثوابُ ، ولو أجبرهم على المعصيةِ لبطلَ العقابُ ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرةِ " .

فاللهُ سبحانه وتعالى أعطانا حريةَ الاختيارِ ليثمِّنَ عملَنا ، وإلا لمَا كان للعملِ الصالحِ قيمةٌ ، ولا للعملِ السيّئِ قيمةٌ ، ولما حوسِبَ الإنسانُ على عملِه .

لو أنك أودعتَ طالباً في السجنِ أيامَ الامتحانِ ، ومنعتَه من أنْ يقدِّمَ امتحانَه فرسبَ ، في هذه الحالةِ لا تستطيعُ أن توجِّه له توبيخاً ولوماً على رسوبِه ، كذلك لو أنك أعطيتَ الأسئلةَ لطالبٍ فنالَ الدرجةَ الأولى ، لا تستطيعُ أن تقيمَ له حفلاً ضخماً تكريماً لهذه الدرجةِ العالية ، دائماً وأبداً الدليلُ النقليُّ لا يتعارضُ مع الدليلِ العقليِّ ، لأن



النقلَ كلامُه ، والعقلَ مقياسُه ، والواقعَ خَلْقُه ، والفطرةَ جِبلَّتُه ، ولأنّ الحقَّ ما جاء به النقلُ الصحيحُ ، وتوافقَ مع العقلِ الصريحِ ، ومع الفطرةِ السليمةِ ، ومع الواقعِ الموضوعيِّ .

02 - مسائل مهمة في التخيير

المسألةُ الأولى :

إنّ الإنسانَ مخيّرٌ فيما كُلِّفَ به ، ومسيّرٌ فيما لم يكلَّفْ به ، وهذا التسييرُ في صالحِه .

هناك مجموعةٌ من الأمورِ لا يدَ للإنسانِ فيها ، ولا اختيارَ ، ومن أمثلتها :

1 – الأم والأب : فيمكنُ أن يكونَ الإنسانُ ابناً لثريٍّ يقدِّم له كلَّ ما يطلبه ، ويمكنُ أن يكونَ ابناً لفقيرٍ لا يجدُ قوتَ يومِه .

2 – العصرُ الذي وُلِدَ فيه : فهناك إنسانٌ ابنُ الثلاثينيّاتِ ، وهناك ابُن الخمسينيّ اتِ ، وهناك مَن عاش في العصورِ الوسطى ، ومَن سيأتي في عصرٍ لاحقٍ ، فالعصرُ لا يملكُه الإنسانُ ، ولكنه مقدَّرٌ له مِن اللهِ تعالى .

3 – البيئةُ ومكانُ الولادةِ : فهناك من وُلِدَ في بلادِ العربِ ، وعاش فيها ، وهناك من وُلِدَ في بلادِ الغربِ أو غيرِها ، وكلُّ هذا لا يملكه الإنسانُ .

4 – القدراتُ العامّةُ : فهذا قامته طويلةٌ ، وذاك أقلُّ طولاً ، وهذا لونُ بشرتِه أبيضُ ، وذاك أسودُ ، وكلُّ هذا مِن اللهِ تعالى .

إلاّ أن الحقيقةَ التي يجبُ ألاّ تغيبَ عن أذهاننا أبداً هي ما قاله الإمامُ الغزاليّ : " ليس في الإمكانِ أبدعُ مما كان " ، فهذا الذي لا خيارَ لنا فيه إنما هو في صالحِنا ، ولكنّ الإنسانَ يعرفُ هذا يومَ القيامةِ حين تكْشَفُ له الحقائقُ ، فلا يملكُ إلاّ أنْ يقولَ كلمة واحدة : " الحمدُ للهِ ربِّ العالمين " ، يحمد اللهَ على أنه وُلِدَ من هذا الأبِ وتلك الأمِّ



، وفي هذا الزمانِ والمكانِ ، وبهذه الخصائصِ والقدراتِ التي منحَها اللهُ إيّاه ، بما يتناسبُ مع أداءِ مهمّتهِ المنوطةِ به .

الإنسانُ مسيّرٌ في الأساسِ فيما لا علاقةَ له بالتكليفِ ، وبما يحقّقُ مصالحَه ، ثم هو مخيّرٌ فيما كُلِّفَ به ، يختارُ أيّ الطريقين شاء .

المسألةُ الثانيةُ :

الإنسانُ مسيّرٌ في الأساسِ ، ثم هو مخيّرٌ ، ثم هو مسيّرٌ ، فالتسييرُ لا يتناقضُ مع الاختيارِ ، بل هما يتكاملان .

الإنسانُ مسيّرٌ في الأمورِ التي سبقَ ذكرها ، (أمُّه ، وأبوه ، وزمانُ ومكانُ ولادتهِ ، وقدراتهُ العامّةُ ، وشكلُهُ، وما إلى هنالك) ، ثم هو مخيَّرٌ في أن يطيعَ الله ، أو يعصيهَ ، في أن يسلكَ طريقَ الحقِّ والخيرِ ، أو طريقَ الشرّ والباطل ، بعد ذلك يسيَّرُ الإنسانُ مِن قِبلِ اللهِ تعالى لتحقيقِ اختيارِه ، فيكافأُ إن اختارَ الخيرَ ، ويدفعُ ثمنَ اختيارِه إن اختارَ الشرَّ .

فالإنسانُ مخيّرٌ مثلاً في طريقةِ كسبِ المالِ ، فإن اختارَ الطريقَ المشروعَ يسيرُ لكسبِ مالهِ بالطرقِ المشروعةِ ، وبما يحقّقه صالحُه ، وإن اختارَ طريقَ السرقةِ مثلاً ، ولم يستجبْ لربهِّ ، ولا لنداءِ عقله وفطرته ، وأصرّ على موقفه فإنّ اللهَ عز وجل يسيِّره ليدفعَ ثمنَ اختياره بما يتوافقُ مع الحكمةِ المطلقةِ لربّ العالمين ، ليظهِرَ خبايا نفسِه ، ولتقومَ عليه الحجّةُ ، وبما أنّ خطةَ اللهِ تستوعبُ خطةَ الكافرِ بما يتوافقُ مع مشيئةِ اللهِ فإنّ هذا الإنسانَ المصرَّ على السرقةِ يسيرُ ليسرقَ من حيثُ سمحَ اللهُ له أن يسرق ، وفي الزمانِ الذي يسمحُ اللهُ فيه ، تحقيقاً لحكمةِ الله جل جلاله ، إذ إنه لا يقعُ شيءٌ في مُلكِ اللهِ من دونِ أن يسمحَ به .



المسألةُ الثالثةُ :

الإنسانُ مخيَّرٌ ، ولكنّ الفعلَ فعلُ اللهِ تعالى .

مثال ذلك : لو أنّ طالباً لم ينجحْ في الامتحانِ ، فصدرَ قرارُ رسوبِه من إ دارةِ المدرسةِ ، فلو قلنا : إن الطالبَ قد رسب فالكلامُ صحيحٌ ، ولو قلنا : إنّ الإدارةَ قد رسبّت الطالبَ فالكلامُ صحيحٌ ، فهو قد رسبَ سبباً ، والمديرُ رسبّه تنفيذاً .

والنتيجةُ أنه لا تناقضَ أبداً بين اختيارِ الإنسانِ ، وكونِ الأفعالِ م ن اللهِ تعالى ، فإرادةُ الله تعني أنه سمحَ للإنسانِ أن يفعلَ ما يشاء ، لأنه مخيَّرٌ ، واللهُ تعالى يتولّ ى إمدادَه بالقوةِ التي يحرِّرُ فيها اختيارَه .

قال تعالى :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾

[البقرة : من الآية 286.]

فالإنسانُ يكسبُ الطاعةَ ، أو يكتسبُ المعصيةَ ، أما الفعلُ فهو فعلُ اللهِ عز ــــ وجل ، فحينما يريدُ الإنسانُ الحقَّ والخيرَ يدلُّه اللهُ عليه ، ويعينُه عليه ، وحينما يصرُّ على المعصيةِ يسمحُ اللهُ له بإظهارِ ما في نفسِهِ ، لأنه مخيَّرٌ .

إنّ قضيةَ التخييرِ والتسييرِ ، والهدايةِ والإضلالِ تتطلّبُ دراسةً واعيةً ، لأنها تتعلّقُ بالعقيدةِ ، ولأنّ العقيدةَ تنعكسُ سلوكاً يمكن أن يرقى بصاحبِه إلى أعلى علّيين ، أو يهبطَ به إلى أسفلِ سافلين ، وكثيرٌ من الناسِ يعتقدون بالجبرِ الذي يشلّ حركةَ الإنسانِ ، فيتوقفون عن العملِ منتظرين مصيرَهم المحتومَ ، مع أنّ الأدلةَ واضحةٌ على أنّ الإنسانَ مخيَّرٌ ، وأن العملَ لا قيمةَ له من دونِ تخييرٍ ، فلو أنك أجبرتَ إنساناً على أن يعطيَك هديةً فهذه لا تسمَّى هديةً ، وإنما تسمّى اغتصاباً ، فقيمةُ الهديّةِ تأتي من أنها قُدِّمَتْ اختياراً .



المقوم السابع : الزمن



01 - الزمن

حينما يتفكر الإنسان في خلق السماوات والأرض ، يحكم من خلال مبادئ عقله أن لهذا الكون خالقاً عظيماً ، ومربياً رحيماً ومسيّراً حكيماً . وأن هذا الخالق عظيم في خلقه ، كامل في أفعاله ، ومن لوازم كماله ألا يدع عباده بلا تعريف ، ولا تبيين ، ولا منهج من أمر ، ونهي ، وإعذار، وإنذار ، ووعد ، ووعيد ، ولهذا بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ففي الكتب المنزلة تعريف للإنسان بخالقه ومربيه ، تعريف بحقيقة الحياة الدنيا ، ومهمة الإنسان فيها .

ولهذا منح الله تعالى عباده في الحياة الإعدادية مقومات التكليف ، كون ، وعقل ، وفطرة ، ومنهج ، وشهوة ، واختيار ، كل هذا على مسرح مكاني هو الأرض ، وفي ظرف زماني هو العمر ، فالعمر رأس مال الإنسان في حياته الدنيا ، إذا أنفقه الإنسان في تزكية نفسه كان ثمناً لجنة ربه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ، كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[الذريات:15- 19]



وقال تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾

[سورة الحاقة19-24]

02 ـ قيمة الزمن من خلال سورة العصر

في القرآن الكريم سورةٌ قصيرةٌ كان الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله تعالى يقول عنها :

(لو تدبَّر الناسُ هذه السورة لَكَفَتْهُم).

[تفسير ابن كثير (548/4)]

هذه السورةُ ترسمُ منهجًا كاملاً للحياة البشرية ، كما يريدُها خالقَ البشرية ، فعلى امتدادِ الزمانِ في جميعِ العصور ، وعلى امتدادِ المكانِ في جميع الدهور ، ليسَ أمامَ الإنسانِ إلا منهجٌ واحدٌ رابحٌ ، وطريق واحد سالك إلى جنةِ الخُلدِ ، وكلُّ ما وراء ذلك ضياعٌ ، وخسارةٌ ، وشقاء .

إنها سورة العصر ، قال تعالى :

﴿وَالْعَصْرِ *إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

[سورة العصر : الآية 1-3]



لقد أَقْسمَ اللهُ جلّ جلالُه بمطلق الزمن ، العصر ، لهذا الإنسانِ الذي هو في حقيقته زمنٌ ، فهو بِضْعَةُ أيام ، كلما انقضى يومٌ انقضى بِضْعٌ منه ، وما مِن يوم ينشقُّ فجرُه إلا وينادي : يا ابن آدم ، أنا خلقٌ جديدٌ ، وعلى عملِك شهيدٌ ، فتزوَّدْ منِّي ، فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

لقد أقسمَ اللهُ بالزمن للإنسان أنّه في خُسرٍ ، بمعنى أنَّ مُضِيَّ الزمنِ وحدَه يستهلكُ عُمُرَ الإنسان الذي هو رأسُ ماله ، ووعاءُ عملِه الصالحِ ، الذي هو ثمنُ الجنة التي وَعَدَه اللهُ بها .

هلِ الخسارةُ في العُرْفِ التِّجاريِّ إلا أنْ تُضَيِّعَ رأسَ ما لِكَ مِن دون تحقيقِ الربحِ المطلوب ، لكنّ الإنسانَ إذا استثْمرَ الوقتَ فيما خُلِقَ له ، يستطيع أنْ يتلافَى هذه الخسارةَ ، وذلك بالإيمانِ ، والعملِ الصالحِ ، والتواصي بالحقِّ ، والتواصي بالصّبرِ.

أولاً : الإيمان ، ﴿إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

إنّ الإيمانَ هو اتصالُ هذا الكائنِ الإنسانيّ الصغيرِ ، الضعيف الفاني ، المحدود ، بالأصل المطلقِ الأزليّ الباقي ، الذي صدرَ عنه هذا الوجودُ ، وعندئذٍ ينطلقُ هذا الإنسانُ من حدود ذاته الصغيرة ، إلى رحابةِ الكون الكبير ، مِن حدودِ قوته الهزلية ، إلى عظمة الطاقات الكونية المخبوءة ، من حدود عمره القصير ، إلى امتدادِ الآبادِ التي لا يعلمُها إلا اللهُ ، هذا الاتصالُ فضلاً على أنه يمنحُ الإنسانَ القوةَ ، والامتدادَ ،



والانطلاقَ ، فإنه يمنحُه السعادةَ الحقيقيةَ التي يَلْهَثُ وراءها الإنسانُ ، وهي سعادةٌ رفيعةٌ ، وفرحٌ نفيسٌ ، وأُنْسٌ بالحياةِ ، كَأُنْسِ الحبيبِ بحبيبِه ، وهو كَسْبٌ لا يعدِلُه كسبٌ ، وفقدانُه خسرانٌ لا يعدِلُه خسرانٌ ، وعبادةُ إلهٍ واحدٍ ترفعُ الإنسانَ عن العبوديةِ لسواه ، فلا يذلّ لأحد ، ولا يحني رأسَه لغير الواحد القهار ، فليس هناك إلا قوةٌ واحدةٌ ، ومعبودٌ واحدٌ ، وعندئذٍ تنتفي مِن حياةِ الإنسانِ المصلحةُ ، والهوى ، ليحلّ محلَّها الشريعةُ والعدلُ .

والاعتقادُ بكرامةِ الإنسانِ ، وهو مِن لوازمِ الإيمانِ ، الاعتقاد بكرامة الإنسان عند الله يرفع من قيمته في نظر نفسه ، ويثيرُ في نفْسهِ الحياءَ ، مِنَ التّدنِّ ي عنِ المرتبةِ التي رَفَعَهُ اللهُ إليها .

ثانياً : العمل الصالح ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

ولأنّ الإيمانَ حقيقةٌ إيجابيةٌ متحركةٌ ، كان العملُ الصالحُ هو الثمرةَ الطبيعيةَ للإيمان ، فمَا إنْ تستقرَّ حقيقةُ الإيمانِ في ضميرِ المؤمنِ حتّى تسعَى بذا تِها إلى تحقيق ذاتِها ، في صورةِ عملٍ صالحٍ ، فلا يمكنُ أنْ يظلَّ الإيمانُ في نفسِ المؤمنِ خامداً لا يتحرّك ، كامناً لا يَتَبَدَّى ، فإنْ لم يتحرّكِ الإيمانُ هذه الحركةَ الطبيعيةَ فهو مزيَّفٌ ، أو ميتٌ ، شأنُه شأنُ الزهرةِ ، ينبعثُ أريجُها منها انبعاثاً طبيعياً ، فإنْ لم ينبعثْ منها أريجٌ فهو غيرُ موجود .



والعملُ الصالحُ ليس فلتةً عارضةً ، ولا نزوةً طارئةً ، ولا حادثةً منقطعةً ، إنما ينبعثُ عن دوافعَ ، ويتّجهُ إلى أهدافٍ ، ويتعاونُ عليه المؤمنون .

الإيمانُ ليس انكماشاً ، ولا سلبيةً ، ولا انزواءً ، ولا تَقَوْقُعاً ، بل هو حركةٌ خَيِّرَةٌ نظيفةٌ ، وعَمَلٌ إيجابيٌّ هادفٌ ، وعمارةٌ متوازنةٌ للأرض ، وبناْء شامخٌ للأجيال ، يتّجهُ إلى الله ، ويليقُ بمنهج الله ، ورَحِمَ اللهُ عمرَ بنِ عبد العزيز إذ يقول : **(إن اللّيل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما ، ويأخذان منك ، فخذ منهما) .**

كلما اتَسعتْ رقعةُ العملِ فشملتْ أعداداً كبيرةً من بَني البشرِ حتى دخلتْ فيه الأممُ والشعوبُ ، وكلّما امتدّ أمدُ العملِ وطالَ حتى توارثتْ ثمارَه أجيالٌ وأجيالٌ ، وكلما تغلغلَ العملُ في كيانِ الإنسانِ كلِّه ؛ الماديّ والنفسيّ ، والا جتماعيّ ، والروحيّ ، حتى تحقَّق به وجودُ الإنسان ، وتألّقتْ من خلاله إنسانيتُه ، وكان كما أريد له أن يكون ، إذاً كلما اتسعتْ رقعةُ العمل ، وعَمَّ خيره ، وطالَ أمدُه ، واشتدَّ تأثيرُه ، كانَ أعظمَ عندَ اللهِ .

هذه صفاتُ العملِ الصالحِ ، فالنبيّ صلى الله عليه وسلم أَخْرَجَ الناسَ مِن الظلمات إلى النور ، ومِن دَرَكَاتِ الجاهليةِ إلى أعلى مراتبِ الإنسانية ، وغيَّر وجهَ التاريخِ البشريّ كله ، إلى اليوم ، وإلى ما شاء الله ، في ثلاث وعشرين سنة ، أقامَ فيها دينًا جديداً ، وربَّى عليه جيلاً فريداً ، وأنشأ أمّةً مثاليةً ، وأسّسَ دولةً عالميةً ،



في هذا الزمن اليسير ، على الرغم مِن كلّ الصعوباتِ والعوائقِ التي اعترضتْ سبيلَه مِن أوّل يومٍ .

لقد عرف صلى الله عليه وسلم قيمة الوقت فجعله ظرفاً لبطولاتٍ تعجز عن صنعها الأمم والشعوب ، حتى أقسم الله بعمره الثمين فقال تعالى :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

[سورة الحجر72]

وربّى عليه الصلاة والسلام أصحابه تربية حملت أحدهم على أن يقول (والله لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، ولو قيل لي إنك تموت غداً ، ما قدرت أن أزيد في عملي شيئاً)

ويزدادُ ثقلُ العملِ في ميزانِ الحقِّ ، وتتضاعفُ قيمتُه ومثوبتُه عند الله كلما كثرتْ العوائقُ في سبيله ، وعظُمتِ الصوارفُ عنه ، وقَلَّ المُعينُ عليه .

ويزدادُ ثقلُ العملِ في ميزان الحقِّ ، وتتضاعفُ قيمتُه ومثوبتُه عند اللهِ حينما تَفْسُدُ المجتمعاتُ ، وتضطرب الأحوالُ ، فيجور الأمراءُ ، ويتجبّرُ الأقوياءُ ويترفُ الأغنياءُ ، ويداهِن العلماءُ ، وتشيع الفاحشةُ ، ويظهرُ المنكرُ ، ويختفي المعروفُ ، وفي الحديث عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**)) .

[أخرجه مسلم (2948)، والترمذي(2201)]



فإذا رُزِقَ الإنسان التوفيقَ في إنفاقِ وقتهِ يستطيعُ أنْ يُطيلَ عمرَه إلى ما شاء الله بعد موته ، فيحيا وهو ميت ، ويؤدّي رسالتَه وهو تحت التراب ، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : **((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))**

[أخرجه مسلم (1631) عن أبي هريرة]

فكيف إنْ لم يكن له عملٌ أصلاً ، ووافتْه المنيّةُ .

وفي حديثٍ آخرَ تضمّنَ تفصيلاتٍ لهذه الثلاث ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **((إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ))** .

[رواه ابن ماجه(242)وابن خزيمة في صحيحه (2490)]

وأخرجَ مسلمٌ في صحيحه أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : **((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))** .

[رواه مسلم (1017)، والنسائي(75/5) وغيرهما عن جرير بن عبد الله ، وللحديث تتمة]



فوَيْلٌ ، ثم ويلٌ ، ثم ويلٌ ، لِمَن انقضتْ آجالُهم ، وضلالاتُهم ، وآثامُهم باقيةٌ مِن بعدهم ، وهنيئاً ، ثم هنيئًا ، ثم هنيئًا لِمَن كانوا تحت الثرى ، والناسُ مهتدُون بهديهم سعداء بأعمالهم .

قال ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية : (**رُبَّ عُمُرٍ اتَّسعت آمادُه ، وقلَّتْ أمدادُه ، ورُبَّ عُمُرٍ قليلةٌ آمادُه ، كثيرةٌ أمدادُه ، ومَنْ بوركَ له في عُمرِه أدركَ في يسيرٍ مِنَ الزمنِ مِنَ المِنَنِ ما لا يدخلُ تحتَ دائرةِ العبارةِ ، ولا تلحقُه وَمْضَةُ الإشارةِ**)

ثالثاً : التواصي بالحق ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ .

لأنَّ النهوضَ بالحقِّ عسيرٌ ، والعوائقَ كثيرةٌ ، والصوارفَ عديدةٌ ، فهناك هوى النفوسِ ، ومنطقُ المصلحةِ ، وظروفُ البيئة ، وضغوطُ العمل ، والتقاليدُ ، والعاداتُ ، والحرصُ ، والطمعُ ، عندئذٍ يأتي " **التواصي بالحق** " ، ليكونَ مذكِّراً ، ومشجِّعاً ، ومحصِّناً للمؤمنِ الذي يجدُ أخاه معه يوصيه ، ويشجِّعه ، ويقف معه ، ويحرصُ على سلامته ، وسعادته ، ولا يخذُله ، ولا يسلبُه ، وفضلاً عن ذلك ، فإن " **التواصي بالحق** " ينقِّي الاتِّجاهاتِ الفرديةِ ، ويقِّيها ، فالحقُّ لا يستقرّ ، ولا يستمرّ إلا في مجتمعٍ مؤمنٍ ، متواصٍ ، متعاونٍ متكافلٍ ، متضامنٍ .



فالمرءُ بالإيمانِ والعملِ الصالحِ يكمِّل نفسَه ، وبالتواصي بالحقِّ يكمِّل غيرَه ، وبما أنّ كيانَ الأمةِ مبنيٌّ على الدِّينِ الحقِّ الذي جاءنا بِالنَّقلِ الصح يح ، وأكّده العقلُ الصريحُ ، وأقرَّه الواقعُ الموضوعيّ ، وتطابقَ مع الفطرة السليمة ، فلا بد أنّ يستمرَّ هذا الحقُّ ، ويستقرَّ ، حتى تشعرَ الأمةُ بكيانها ، ورسالتها ، " **فالتواصي بالحق** " قضيةٌ مصيريةٌ ، فما لم تتنامَ دوائرُ الحقِّ في الأرض ، تنامتْ دوائرُ ا لباطلِ ، وحاصرتْه ، " **فالتواصي بالحق** " يعني الحفاظَ على وجودِه ، والأداءِ لرسالته .

رابعاً :**التواصي بالصبر** ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ .

لقد شاءتْ حكمةُ الله جل جلاله أنْ تكون الدنيا دارَ ابتلاءٍ بالشَّرِّ والخيرِ ، ودارَ صراعٍ بين الحقِّ والباطلِ ، لذلك كان التواصي بالصبر ضرورةً للفوزِ بالابتلاءِ ، والغلبةِ في الصراعِ .

إذاً : لا بد مِنَ التواصي بالصبر على مغالبةِ الهوى ، وعنادِ الباطل ، وتحّملِ الأذى ، وتكبّدِ المشقةِ ، لذلك يعدُّ الصبرُ وسيلةً فعالةً لتذليلِ العقباتِ ، ومضاعفةِ القدراتِ ، وبلوغِ الغاياتِ ، قال تعالى :

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ .

[سورة النساء ، الآية 104]



03 - إدارة الوقت

العبرةُ ليست في إنفاقِ الوقتِ ، بل في استثماره ، فالوقتُ إذا أنفقناهُ ضاعَ ، أما إذا استثمرناهُ فسينمو ، ويُؤتِي ثمارَه في مستقبلِ حياتنا ، وللأجيال القادمة .

إذًا كيف يُنفقُ المسلمُ الزمنَ إنفاقاً استثماريًّا ؟ لئلاّ تُحقَّق به الخسارةُ ، إنَّ هذا ما يسمَّى في المصطلح الحديث **(إدارة الوقت)**.

الوقتُ في حياةِ المسلمِ عبادةٌ ممتدَّةٌ ، أمّا الوقتُ في الثقافةِ الغربيةِ ، والنظرياتِ الماديةِ ، فإنه لا يخرج عن نطاقِ المثل الشائع : " **الوقت هو المال** " ، وإذا وَازَنَّا هذه العبارةَ بقولِ الحسنِ البصري رحمه الله تعالى : **(أدركتُ أقواماً كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على دراهمه ودنانيره)** ، نَستنتجُ أنّ الوقتَ عندَ المسلمِ أغلى مِنَ المالِ ، ذلك أنّ المسلمَ يُدرك أنّ المالَ يمكنُ تعويضُه ، بينما الوقتُ لا يمكن تعويضُه.

أيها الإخوة الكرام ، الإنسانُ حينما يَحرقُ مبلغاً كبيراً مِنَ المال يُحكَم عليه بالسَّفَهِ ، ويُحْجَر على تصرفاتِه ، ولأنه مركَّبٌ في أعماقِ الإنسانِ أنّ الوقتَ أثمنُ مِنَ المالِ ، بدليلِ أنه يبيعُ بيتَه الذي يسكنُه ولا يملكُ شيًا سِوَاهُ ليُجريَ بثمنِه عمليةً جراحيةً ، متوهِّمًا أنّها تزيدُ في حياتِه سنواتٍ عدةً ، فالوقتُ عندَ كلّ إنسانٍ أثمنُ مِنَ المال ، وبناءً على هذه المُسَلَّمَةِ فإنّ الذي يُتلفُ وقتَه أشدُّ سَفَهاً مِنَ الذي يُتْلِفُ مالَه .



إدارةُ الوقتِ هِي فعلُ ما ينبغي ، على الوجهِ الذي ينبغي ، في الوقتِ الذي ينبغي ، الوقتُ مِن ذَهَبٍ ، بل أغلى من الذهب ، بل هو لا يُقدَّ ر بثمن ، إنه أنت ، ويُعَدُّ الوقتُ أحدَ أربعةِ مواردَ أساسية في مجال الأعمالِ ؛ المواد ، والمعلومات ، والأفراد ، ثم الوقتُ الذي يُعدّ أكثرَها أهميةً ، لأنه كلما تَحَكّمَ الفردُ في وقتِه بمهارةٍ وإيجابيةٍ استطاعَ أن يستثمرَه في تحقيقِ أقصى عائدٍ ممكنٍ مِنَ المواردِ الأخرى ؛ حيث إنّ الفردَ عندما يديرُ وقتَه بشكلٍ فعّالٍ هو في الحقيقة يديرُ نفسَه ، وعبادتَه ، وعملَه ، ودنياهُ إدارةً فعّالةً .

وعلى الرغمِ مِن هذه الأهميةِ الكبيرةِ للوقتِ ، فإنّ أكثرَ العناصرِ والمواردِ هدراً ، وإنّ أقلَّها استثماراً ، سواء من الجماعات ، أو من الأفراد ، هو الوقتُ ، ويعود هذا لأسبابٍ عدّةٍ ، أهمّها عدمُ الإدراكِ الكافي للخسارةِ الكبيرةِ المترتبةِ على سُوءِ إدارتِه

.

الوقتُ مَوْرِدٌ نادرٌ ، لا يمكن تجميعُه ، ولأنّه سريعُ الانقضاءِ ، وما مضى منه لا يرجع ، ولا يعوَّض بشيء ، كان الوقتُ أنفسَ وأثمنَ ما يملكُ الإنسانُ ، وترجعُ نفاستُه إلى أنه وعاءٌ لكلِّ علمٍ ، ولكلِّ عملٍ ، ولكلِّ عبادةٍ ، فهو في الواقعِ رأسُ المالِ الحقيقيّ للإنسانِ ، فرداً ومجتمعاً.



ومِنْ هذا المنطلق يعدُّ الوقتُ أساسَ الحياةِ ، وعليه تقومُ الحضارةُ ، فصحيحٌ أنّ الوقتَ لا يمكن شراؤُه ، ولا بيعُه ، ولا تأجيرُه ، ولا استعارتُه ، ولا مضاعفتُه ، ولا توفيرُه ، ولا تصنيعُه ، ولكن يمكن استثمارُه وتوظيفُه ، أولئك الذين لديهم الوقتُ لإنجازِ أعمالِهم ، ولديهم أيضاً الوقتُ لمعرفةِ ربِّهم ، وعبادتِه ، والتقرّبِ إليه ، عرفوا قيمتَه ، هم يستثمرون كلَّ دقيقةٍ مِن وقتهم ، ولذا فإدارةُ الوقتِ لا تنطلقُ إلى تغييرِه ، أو تعديلِه ، أو تطويرِه ، بل إلى طريقةِ استثمارِه بشكلٍ فعّالٍ ، ومحاولةِ تقليلِ الوقتِ الضائعِ هَدْراً دون فائدةٍ .

يؤكِّد بعضُ العلماءِ منذ زَمَنٍ قديم أنَّ الوقتَ يمرُّ بسرعةٍ محدّدةٍ وثابتةٍ ، فكلُّ ثانيةٍ أو دقيقةٍ ، وكلُّ ساعةٍ تشبهُ الأخرى ، وأنّ الوقتَ يسيرُ إلى الأمامِ بشكلٍ متتابع ، وأنه يتحركُ وَفقَ نظامٍ معيَّن مُحكَم ، لا يمكن إيقافُه ، أو تغييرُه ، أو زيادتُه ، أو إعادةُ تنظيمه ، وبهذا يمضي الوقتُ بانتظامٍ نحو الأمام ، دون أيِّ تأخيرٍ أو تقديم ، ولا يمكن بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ إيقافُه أو تراكمُه أو إلغاؤُه أو تبديلُه أو إحلالُه ، إنّه موردٌ محدَّدٌ يملكُه الجميعُ بالتساوي ، فعلى الرّغم مِنْ أنّ الناسَ لم يُولَدوا بقدراتٍ أو فُرَصٍ متساويةٍ ، فإنهم جميعا يملكون الأربعَ والعشرين ساعةً نفْسَها كلَّ يومٍ ، والاثنينِ والخمسينَ أسبوعاً كلَّ عام ، وهكذا فإن جميعَ الناس متساوون في ناحيةِ المُدَّة الزمنية ، سواء أكانوا من كبار الموظفين أم مِن صغارهم ، مِن أغنياء القوم أم مِن فقرائهم ،



لذلك فالمشكلةُ ليستْ في مقدار الوقتِ المتوفّر لكلٍّ مِن هؤلاء ، ولكنْ في كيفيةِ إدارةِ الوقت المتوفّر لديهم واستخدامِه ، وهل يستخدمونه بشكلٍ جيِّدٍ ومفيدٍ في إنجاز الأعمالِ المطلوبةِ منهم ، أو يهدرونه ، ويضيِّعونَه في أمور قليلة الفائدة .

إنّ إدارةَ الوقتِ هي تحديدُ هدفٍ ، ثم تحقيقُه ، قال تعالى :

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

[سورة الملك : الآية 22]

ولا شكّ أنّ مَنْ يمشي إلى هدفٍ وغايةٍ واضحةٍ أهدى مِمَّن يَخبِطُ خَبْطَ عشواء.

الوقتُ نعمةٌ عظيمةٌ ، تؤكِّد السُّنّةُ المطهّرةُ ما جاء في القرآن الكريم مِن أنّ الوقتَ مِنْ نِعَمِ الله على عباده ، وأنهم مأمورون بحفظه ، مسؤولون عنه ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ، الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**)) .

[رواه البخاري (6049) ، والترمذي (2304) وغيرهما]

ومعنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **((كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ))** ، أيْ الذي يُوَفَّقُ لذلك قليلٌ ... فقد يكون الإنسانُ صحيحاً ، ولا يكون متفرِّغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنيًا ، ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا – الصحةُ والفراغُ – فغَلَبَ على الإنسان



الكسلُ عن الطاعة فهو المغبونُ ، والغبنُ أنْ تشتريَ بأضعافِ الثمنِ ، وأنْ تبيعَ بأقَلّ مِن ثمنِ المِثْلِ .

الوقتُ مسؤوليةٌ كبرى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : **((لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ،وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ))** .

[رواه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي(2417)]

الوقتُ وعاءُ العبادةِ ، فالصلاةُ والزكاةُ والصيامُ والحجُّ ونحوُها عباداتٌ محددَّةٌ بأوقاتٍ معيَّنةٍ ، لا يصحّ تأخيرُها عنها ، وبعضُها لا يُقْبَل إذا أُدِّيَ في غير وقته ، فهي مرتبطةٌ ارتباطاً وثيقاً بالوقتِ ، الذي هو عبارة عن الظرفِ أو الوعاء الذي تُؤَدَّى فيه .

ومما ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحثّ على أداءِ العباداتِ في وقتِها قولُه حين سئل : **((أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))** .

[البخاري(504) ، ومسلم(85) عن ابن مسعود]

لقد كان عليه الصلاة والسلام مِن أَشَدِّ الناسِ حِرْصاً على وقته ، وكان لا يَمضي له وقتٌ مِن غير عَمَلٍ لله تعالى ، أو فيما لا بدّ له لصلاحِ نفسه ، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه يصف حالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **((كان إذا أَوَى إلى**



مَنْزله جَزَّأ دُخولَه ثلاثة أجزاء : جُزءا للّه ، وجُزءا لأهلْه ، وجُزءا لنَفْسه ، ثم جَزَّأ جُزْءَهُ بَيْنَهُ وبين الناس ، فَيردَ ذلك على العامَّة بالخاصَّة)) .

[ابن سعد في الطبقات الكبرى (423/1) ، والبيهقي في شعب الإيمان(156/2)]

وفي السنة النبوية الشريفة إشارات إلى أهمية الوقت :

فعن أبن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((اِغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغِكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ)) .**

[أخرجه الحاكم في المستدرك (341/4) ، وابن أبي شيبة في المصنف (77/7) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (125/4)]

بل في حديث رائع عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **((إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)) .**

[أخرجه أحمد (13004)]

ولابن القيم رحمه الله تعالى قول في قيمة الوقت في حياة المسلم ، يقول :

(فالعارفُ ابنُ وقتِه ، فإنْ أضاعَه ضاعت عليه مصالحُه كلها ، فجميعُ المصالحِ إنما تنشأ مِنَ الوقت ، فمتَى أضاعَ الوقتَ لم يستدرِكْه ، فوقتُ الإنسانِ هو عمرُه في الحقيقة ، وهو مادةُ حياتِه الأبديةِ في النعيم المقيم ، ومادةُ المعيشة الضنكِ في العذابِ الأليمِ ، وهو يمرّ أسرعَ مِن مَرِّ السحابِ ، فما كان مِن وقتِه لله ، وبالله فهو



حياتُه وعمرُه ، وغيرُ ذلك ليس محسوبًا مِن حياته ، وإنْ عاشَ فيه عيشَ البهائم ، فإذا قَطَعَ وقتَه في الغفلةِ والشهوةِ والأماني الباطلةِ ، وكان خيرُ ما قطعه بالنوم والبطالة ، فموتُ هذا خيرٌ له مِن حياته ، وإذا كان العبدُ وهو في الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عَقَلَ منها ، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله) .

[الجواب الكافي لمَن سأل عن الدواء الشافي (ص201) ، بتصرف يسير]

ومن جَهِل قيمةَ الوقتِ فسيأتي عليه موقفان خطيران ، يتذكّر فيهما قيمةَ الوقت .

الموقف الأول : ساعةُ الاحتضارِ ، حينَ يودِّع الدنيا ، ويستقبلُ الآخرة ، ويتمنّى لو مُنِحَ مهلةً من الزمن ، وأُخِّر إلى أجلٍ قريبٍ ، ليُصلِحَ ما أفسدَ ، وليتداركَ ما فاتَ .. قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ*وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

[سورة المنافقون : الآية 9-10]

ويأتي الرد الإلهيّ :

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

[سورة المنافقون : الآية 11]



الموقف الثاني : في الآخرة ، حيث تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما عملتْ ، وتُجزَى بما كسبت ، ويدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، هناك يتمنّى أهلُ النارِ لو يعودون إلى دارِ التكليفِ ، ليعملوا عملاً صالحاً ، ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ ، فقد انتهى زمنُ العمل ، وجاء زمنُ الجزاءِ .

قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ*وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ .

[سورة فاطر : الآية 36-37]

و القرآنُ يحذِّر مِنَ الغفلة أشدَّ التحذير ، قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ .

[سورة الأعراف : الآية 179]

آفةٌ أخرى تصيبُ الناسَ ، إنها التسويفُ ، غدًا ، وبَعْدَ غدٍ ، وسوف أتوبُ ، وبعْد انتهاء العام الدراسي ، وبعد تأسيسِ المحلِّ ، وبعْد الزواجِ ، قال الحسن



البصري رحمه الله : **((إيّاكَ والتسويفَ ، فإنّك بيومِك ، ولستَ بغدك ، فإنْ يكن غدٌ لك ، فكنْ في غدٍ كما كنتَ في اليوم ، وإنْ لم يكن لك غدٌ ، فلنْ تندمَ على ما فرَّطتَ في اليومِ))** .

وقيل لعالم جليل : أوصنا ، فقال : **((احذروا (سوف) فإنها جند من جنود إبليس))** ، ولله دَرُّ مَنْ قال :

تَزَوَّدْ مِنَ التّقوى فإنّكَ لا تــدري إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هل تعيشُ إلى الفَجْـر
فَكَمْ مِن سَليمٍ مَاتَ مِن غيرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِن سقيمٍ عَاشَ حِيناً مِنَ الدَّهْرِ
وَكَمْ مِن فتًى يُمسي ويُصبحُ آمناً وقد نُسِجَتْ أكفانُه وهو لا يَــدْرِي

04 - خاتمة

نحن في هذه الدنيا لنتعرف إلى الله تعالى ونعبده فنسعد بقربه وطاعته قال تعالى :
(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)
ومن أجل تحقيق تلك المهمة .....
- كان الكون مسخراً بكل ما فيه تعريفاً وتشريفاً ، مجسداً لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ناطقاً بوجود الله ووحدانيته وكماله .
- وكان العقل أداةً لمعرفته تعالى من خلال إعماله في النظر والتأمل والتفكر في خلق الله وكلام الله وأفعال الله .
- وكانت الفطرة السليمة مقياساً يكشف الخطأ فور وقوعه ، ويعطي لفاعل الخير سكينة وطمأنينة ورضا



- وكان الشرع القويم (الكتاب والسنة) حكماً ومرجعاً ، حين يضل العقل أو تشوه الفطرة .
- وكانت الشهوة محركاً ودافعاً إلى الله تعالى نرقى بها صابرين وشاكرين .
- وكان الاختيار ليعطي للعمل قيمته ويسعد صاحبه في الدنيا والآخرة .
- وكان الزمن وعاءً لعمل الإنسان ، وظرفاً لإنجاز مهمته في الحياة الدنيا .

نسأل المولى جل جلاله أن ينفعنا بتلك المقومات - مقومات حمل الأمانة حتى نؤدي الأمانة كما يحب الله ويرضى فنلقاه بقلب سليم ونفس زكية طاهرة (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)

والحمد لله رب العالمين .



05 - المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

ــ القرآن الكريم .

ــ تفسير القرطبي ، دار الشعب ، القاهرة ، 1372 هــ ، ط2 ، تحقيق أحمد عبد الحليم البردوني .

ــ تفسير ابن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، 1401هــ .

ــ صحيح البخاري ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، 1407 هــ /1987م ، ط3 ، تحقيق د .مصطفى ديب البغا .

ــ صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

ــ سنن الترمذي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، وآخرون .

ــ سنن أبي داود ، دار الفكر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

ــ سنن ابن ماجه ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

ــ السنن الكبرى ، النسائي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1411هــ /1991م ، تحقيق د عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن .

ــ مسند الإمام أحمد ، مؤسسة قرطبة ، مصر .

ــ سنن الدارمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1407هــ ، ط1 ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي .

ــ سنن البيهقي الكبرى ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ، 1414هــ /1994م ، تحقيق محمد عبد القادر عطا .

ــ مصنف عبد الرزاق ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، 1403هــ ، ط 2 ، حبيب الرحمن الأعظمي .

ــ مصنف ابن أبي شيبة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، 1409هــ ، ط1 ، تحقيق كمال يوسف الحوت .



ـ صحيح ابن حبان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1414هـ /1993 م ، تحقيق شعيب الأرنؤوط .
ـ المعجم الكبير ، للطبراني ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، 1404هـ /1983 م ، ط2 ، تحقيق حمدي السِّلفي .
ـ المعجم الأوسط ، للطبراني ، دار الحرمين ، القاهرة ، 1415 هـ ، تحقيق عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني .
ـ المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1411هـ /1990 م ، ط1 ، تحقيق عبد القادر عطا .
ـ الجامع الصغير للسيوطي ، دار طائر العلم ، جدة ، تحقيق عبد الرؤوف المناوي .
ـ حلية الأولياء ، أبو نُعَيم الأصبهاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1405 هـ ، ط 4 .
ـ شُعب الإيمان ، للبيهقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1410هـ ، ط 1 ، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول .
ـ مسند الشهاب ، للقضاعي ، مؤسسة الرسا لة ، بيروت ، 1407 / 1986 ، ط2 ، تحقيق حمدي عبد المجيد السِّلفي .
ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، الهمذاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1986م ، ط1 ، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول .
ـ مجمع الزوائد ، أبو بكر الهيثمي ، دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، بيروت 1407هـ .
ـ كشف الخفاء ، ومزيل الإلباس ، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1405هـ ، ط 4 ، تحقيق أحمد القلاش .
ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، لابن عدي ، دار الفكر ، بيروت ، 1409 هـ /1988 م ، ط3 ، تحقيق يحيى مختار غزوي.



ــ العلل المتناهية ، ابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1403هــ ، ط 1 ، خليل الميس .
ــ علل ابن أبي حاتم ، دار المعرفة ، بيروت ، 1405 هــ ، تحقيق محب الدين الخطيب .
ــ السيرة النبوية ، ابن هشام ، دار الجيل ، بيروت ، 1411هــ ، ط1 ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد .
ــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الحافظ ابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، تحقيق فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب ، 1379 هــ .
ــ شرح صحيح مسلم ، للنووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1392 هــ .
ــ فيض القدير ، المناوي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، 1356 هــ ، ط1 .
ــ بدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، 1416هــ /1996م ، تحقيق عبد العزيز عطا ، عادل عبد الحميد العدوي .
ــ لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1997م .
ــ مختار الصحاح ، الرازي ، دار العلوم ، تحقيق د .مصطفى البغا .



06 - المحتوى

فهرس الموضوعات

